مع فتوحات :

سورة الفتح

الدكتور محمود بن الشريف

أستاذ التفسير بالدراسات العليا بكلية الدراسات الإسلامية والعربية
جامعة الأزهر

دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ ﴾

بين يدى السورة

تمهيد:

فى شهر ذى القعدة من السنة السادسة من الهجرة، دعا رسول الله ﷺ أصحابه إلى أن يهيئوا أنفسهم لأداء العمرة، بعد أن رأى فى المنام أن ملكًا هبط عليه وقال: ﴿لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين﴾..

ومن المدينة سار بهم النبى ﷺ... إلى مكة..

يسوقون الهدى أمامهم، ويحبسون سيوفهم فى أغمادها - وهى سلاح المسافر - وكان عددهم قرابة ألف وأربعمائة.

وقد تخلف عن الخروج معهم قوم من الأعراب الضاربين حول المدينة، لم يتمكن الإيمان من قلوبهم، ظنوا أن قريشًا ستقضى على النبى عليه السلام، وأنهم لن يعودوا إلى المدينة.. وأنهم إن خرجوا معهم فسيهلكون فيمن يهلك من المسلمين.. فسمى الله هؤلاء المتخلفين باسم (المخَلَّفِين). أى المتروكين خلف المسلمين..

ولما وصل رسول الله ﷺ وأصحابه إلى (ذى الحُلَيفة) أحرم بالعمرة؛ ليعلم الناس أنه لا يريد قتالا، وإنما يريد زيارة بيت الله الحرام معظمًا له، مؤديًا فريضة فرضها الإسلام كما فرضتها الأديان من قبل، لذا خرج فى ذى القعدة فى الشهر الحرام..

وفكـرت قريش جـادة فى الحيلولة بـين المسلمين وبـين زيارة البيت الحرام.. !!

وقررت أن تحول بين المسلمين وبين زيارة البيت مهما كلفها الأمر.. !!

وأرسلت «خـالد بن الـوليد» و «عكـرمة بن أبى جهـل» فى مائتى فارس، وعسكروا فى «كراع الغميم» ليحولوا بين المسلمين.. وبين دخول مكة.

وعلم رسول الله ﷺ باستعداد قريش للقتال.

ولما كان ﷺ لا يريد قتالاً نادى فى أصحابه قائلاً:

من يخرج بنا على طريق غير طريقهم؟.

فقال رجل من قبيلة أسلم: أنا يا رسول الله.

وسار بركب المسلمين عن طريق صعب وعرٍ، قاس، عانَى منه المسلمون عناءً شديدًا..

حتى وصلوا إلى «الحُدَيْبِيَة» بأسفل مكة.

(والحُديبية قرية قريبة من مكة، أكثرها فى الحرم)..

وأرسلت قريش إلى رسول الله ﷺ الوسطاء والسفراء يسألونه عليه السلام عن الذى جاء به، وعن الغرض من قدومه إلى مكة. وقال عليه الصلاة والسلام:

إننا لم نجىء لقتالٍ، وإنما جئنا زائرين مُعَظِّمين البيت الحرام.

وتعددت رسل قريش للرسول، ﷺ.

وبدأ النبى ﷺ فى إرسال الرسل من جانبه يبلغهم رأيه وغرضه، ثم أرسل أخيرًا عثمان بن عفان، واستطاع رضى الله عنه أن يبلِّغ رسـالة

محمد ﷺ كاملة. وقالت له قريش: إنها أقسمت أن لن يدخل محمد مكة هذا العام عنوة. وقالوا لعثمان: إن شئت أنت أن تطوف بالبيت فَطُفْ.

فقال: ما كان ينبغى لى أن أطوف ورسول الله ﷺ ممنوع. وما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله، ﷺ.

وطال مُكْثُ عثمان بمكة.. وأُشِيعَ أنه قُتِلَ..!!

ولما بلغت هذه الشائعة رسول الله ﷺ.. رأى أن قريشًا بذلك القتل قد فعلت أمرًا ينكره العرب ويأباه الشرف.. فدعا المسلمين إلى البيعة..

بيعة الرضوان:

فبايعه المسلمون على القتال.. وعلى الثبات والصبر فى وجه قريش، حتى يُكتب لهم النصر أو الشهادة، وكانت هذه هى بيعة الرضوان.

ولما أخذ البيعة من المسلمين ضرب - ﷺ - بإحدى يديه على الأخرى وقال:

هذه لعثمان، كأنه حاضر معهم بيعة الرضوان هذه.

وبعد أن اهتزت السيوف فى أغمادها، وجعل كُلٌّ ينتظر الساعة الحاسمة بين الحق والباطل، بين الإسلام والكفر بنفس متطلعة للاستشهاد، ومطمئنة بالإيمان.. وأنهم لكذلك إذ بلغهم أن عثمان لم يُقْتَلْ.. ثم لم يلبثوا أن أقبل عثمان بنفسه.

وأبلغ عثمان النبى ﷺ بموقف قريش وإصرارهم على منعه من دخول مكة هذا العام.. وإلاَّ فليس أمامهم إلا الحرب، وأنهم لها لكارهون فى هذه الأشهر الحُرم.

الصلح.. والعهد:

وعلمت قريش بأمر هذه البيعة.. لذا رأوا أن يرسلوا إلى رسول الله ﷺ «سُهَيْل بن عمرو» ليعقد معه صلحًا.. وقالوا له:

ايتِ محمدًا فصالِحْهُ، ولا يكن فى صُلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا، حتى لا تتحدث العرب عنا أنه دخل علينا مكة عنوة.

وأقبل «سهيل» على رأس وفد من قريش قاصدين معسكر المسلمين.

ودارت مفاوضات.. كادت تنقطع فى بعض الأحيان.

وكان بعض المسلمين يضيق صدرًا بأمر هذه المحادثات، لتشدد سهيل بن عمرو فى مسائل كان النبى ﷺ يتساهل فى قبولها.

وتم الصلح على أسس:

أولها: أن يرجع المسلمون دون زيارة البيت هذا العام، فإذا كان العام التالى أخْلَتْ قريش لهم مكة ثلاثة أيام ليطوفوا بالبيت، وليس معهم إلا السيوف فى غمدها.

ثانيًا: أن تضع الحرب أوزارها بين الطرفين عشر سنوات.

ثالثًا: مَنْ أتَى رسول الله ﷺ من قريش مسلمًا رده إليهم، ومن ارتد من المسلمين وأتى قريشًا لم يردوه.

عز على بعض المسلمين قبول الرسول ﷺ هذه الشروط. ومن هؤلاء عمر بن الخطاب الذى قال لأبى بكر الصديق:

يا أبا بكر: أليس برسول الله؟

قال: بلى.

قال عمر: أو لسنا مسلمين؟.

قال أبو بكر: بلى.

قال عمر: فعلامَ نُعطى الدَّنِيَّةَ فى ديننا؟.

قال أبو بكر: يا عمر، الزم رحلك، فإنى أشهد أنه رسول الله.

قال عمر: وأنا أشهد أنه رسول الله، ثم قال: أو لم يعدنا أننا سندخل المسجد الحرام آمنين؟.

قال أبو بكر: وهل قال لك فى عامنا هذا؟!.

ثم أتى رسول الله ﷺ، وتحدث معه بمثل ما تحدث مع أبى بكر..

وفى النهاية قال له رسول الله ﷺ «أنا عبد الله ورسوله ولن أخالف أمره ولن يُضَيِّعَنِى».

أى: إنَّ وراء هذا الموقف حكمة قد غابت عنك يا عمر.. إن كان علمك يا عمر يقول لك: إن الأمر ليس فى صالح المسلمين، فاعلم أن علم الله أكمل من علمك.

وبعد أن تَمَّ الصلح ووُقِّعت المعاهدة. قال الرسول ﷺ لأصحابه:

قوموا فانحروا ثم احلقوا..

وبعد أن تحللوا من العمرة.. أقاموا بالحديبية عدة أيام ثم عادوا راجعين إلى المدينة، وفى طريق عودتهم من الحديبية.. إلى المدينة نزلت سورة الفتح..

وبعد شهرين من نزول سورة الفتح، أى فى أوائل السنة السابعة من الهجرة كان فتح خيبر.

وفى السنة الثامنة من الهجرة.. كان فتح مكة..

* * *

فى طريق العودة من الحديبية إلى المدينة.. نزلت سورة الفتح.

يقول البخارى وأبو داود والنسائى وجماعة عن ابن مسعود قال:

«أقبلنا من الحديبية مع رسول الله ﷺ، وكان قد خرج إليها ﷺ يوم الاثنين، هلال ذى القعدة، فأقام بها بضعة عشر يومًا، ثم قفل ﷺ. فبينما نحن نسير إذ أتاه الوحى، وكان إذا أتاه اشتد عليه فَسُرِّى عنه، وبه من السرور ما شاء الله تعالى، فأخبرنا ﷺ أنه أنزل عليه: ﴿إنا فتحنا لك...﴾ إلخ.

فرح رسول الله ﷺ بهذه السورة، فرح قلبه الكبير بهذا الفيض الربانى عليه وعلى المؤمنين معه. فرح:

بالفتح المبين، وبالمغفرة الشاملة، وبالنعمة التامة، وبالهداية إلى صراط الله المستقيم، وفرح بالنصر العزيز الكريم، وفرح برضا الله عن المؤمنين، وفى ذلك يقول ﷺ:

نزل عَلَىَّ البارحة سورة أحب إلىَّ من الدنيا وما فيها: ﴿إنا فتحنا لك فتحًا مبينًا...﴾.

سورة الفتح

هذه السورة مدنية

على الاصطلاح المشهور:

من أن المدنى ما نزل بعد الهجرة، والمكى ما نزل قبل الهجرة.

آياتها: تسع وعشرون آية.

وسميت سورة الفتح؛ لأن المولى تبارك وتعالى بَشَّرَ رسوله فى مفتتحها بالفتح المبين:

﴿إنا فتحنا لك فتحًا مبينًا﴾.

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ① ﴾

الفتح: فى اللغة:

إزالة الإغلاق.

ويُطلق الفتح ويُراد به الحكم، ومنه قوله تعالى:

﴿ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين﴾.

والفتح: النصر ومنه: الاستفتاح بمعنى الاستنصار.

﴿وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا..﴾.

أى يستنصرون ببعثة محمد ﷺ.

ويطلق الافتتاح على الابتداء؛ ومنه فاتحة الكتاب.

واختلف فى تعيين الفتح هنا فى صدر هذه الآية الكريمة:

قيل: هو صلح الحديبية.

وقيل: إنه فتح مكة.

وقيل: فتح خيبر.

وقيل: هو جميع ما فتح الله لرسوله من الفتوحات.

* * *

والذى عليه جمهور المفسرين هو الرأى الأول: هو صلح الحديبية.

ويسمى فتحًا لأن نتائجه كنتائج الفتح والغلبة والنصر. (ولأنه كان سببا فى فتح مكة).

وكان هذا الصلح أعظم فتح فى تاريخ الإسلام والمسلمين.

فقد أثبتت الأيام أن هذا الصلح كان حكمة سياسية عظيمة تولى الله توجيه المسلمين إليها، فقد كانت هذه أول مرة تعترف فيها قريش بالنبى ﷺ، وأنه ند لها لا أنه ثائر عليها، خارج عنها، وهى بهذا تعترف بقيام الدولة الإسلامية التى يدعو إليها وإقرارها بحق المسلمين فى زيارة البيت العتيق، وإقامة الشعائر.

واعتراف منها بأن الإسلام دين مقرر معترف به من أديان شبه الجزيرة العربية.

كذلك انتشر الإسلام بعد هذا الصلح انتشارًا كبيرًا فقد كان عددهم عند الصلح ألفًا وأربعمائة، وصل بعد أقل من عامين إلى أكثر من عشرة آلاف مسلم بعد أن أنس القرشيون للنبى ﷺ، وعرفوا الكثير من أخلاقه الحميدة، وسياسته الحكيمة وصدقه ووفائه بالعهد فلانت قلوبهم القاسية، ودخل القرشيون والعرب الذين سمعوا بذلك.. دخلوا بعد ذلك فى دين الله أفواجًا.

وقيل: إن المراد بالفتح: فتح مكة.

فهو وعد منه سبحانه بحصول الفتح.

وعبر بالماضى لتحقق وقوع الفتح وحصوله.

وقيل: إن المراد بالفتح: فتح خيبر.

إذ كان فى أول السنة السابعة الهجرية، أى بعد شهرين من نزول السورة، فكان أقرب النتائج المباشرة لصلح الحديبية ﴿وأثابهم فتحًا قريبًا﴾.

وقد وفَّق ابن حجر بين هذه الأقوال الثلاثة بوجه آخر قال فيه:

إن الفتح المذكور فى صدر هـذه السورة مـراد من قال: إنـه صلح الحديبية.

والفتح المذكور فى قوله ﴿وأثابهم فتحًا قريبًا﴾ مراد من قال: إنه فتح خيبر.

والفتح المذكور فى قوله ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾ مراد من قال إنه فتح مكة.

* * *

مبينا: واضحًا ظاهرًا.

﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ ﴾

والفتح جهاد وقتال ومغالبة ومشقة.. وله مقدمات واستعدادات.. وله جيش وسلاح.. وعتاد.. ومئونة.

وقد بذل رسول الله ﷺ فى الفتوحات عامة، وفى صلح الحديبية بخاصة. كثيرًا من الجهود حتى أتم الله الصلح على يديه وجعله فتحًا مبينًا.. وحتى نشر فى دنيا الناس دين الله.. وكمل على يديه الدين ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينًا﴾.

فاستحق من الله أن يرفعه إلى أسمى الدرجات، وأن يغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فتكون اللام هنا فى قوله تعالى:

ليغفر: تكون للتعليل:

أى: إنا فتحنا لك فتحًا مبينًا لكى يكون الفتح علة وسببًا فى:

١ - مغفرة ذنوبك.

٢ - وإتمام نعمته عليك.

٣ - وهدايتك إلى الصراط المستقيم.

٤ - ونصرك النصر المؤزر القوى.

فالفتح معلل بكل واحد من المغفرة وتوابعها.

على معنى أن العلة التامة للفتح هى هذه الأمور الأربعة.

وهذا هو الأصل من العطف الذى يشعر بالاشتراك فى متعلق اللام، ويكون بمثابة تكرارها، فيكون الفتح سببًا لكل واحد من الأمور الأربعة.

فلم يجعل فتح مكة علة للمغفرة وحدها، ولكن لاجتماع ما عدد من الأمور الأربعة: وهى:

المغفرة، وإتمام النعمة وهداية الصراط المستقيم والنصر العزيز، كأنه قيل:

يسرنا لك فتح مكة، ونصرناك على عدوك لنجمع لك بين عز الدارين..

قال الفخر الرازى: ﴿ليغفر لك﴾ ينبىء عن كون الفتح سببًا للمغفرة، والفتح لا يصلح سببًا للمغفرة، والجواب: أن الفتح لم يجعل سببًا للمغفرة وحدها، بل هو سبب لاجتماع الأمور المذكورة: وهى:

المغفرة، وإتمام النعمة، والهداية، والنصر.

وقد أخذ كثير من المفسرين يذكرون وجوهًا فى الربط بين الفتح والمغفرة وفى كونه سببًا لها.

منها قولهم: إن الفتح من حيث كونه جهادًا للعدو والقصد منه إزاحة الشرك، وتخليص الضعفاء من أيدى الظالمين، فهو سبب للمغفرة.

ومنها قولهم: إن الفتح باعتبار ما ترتب عليه من تطهير البيت من رجس الأوثان كان سببًا للمغفرة.

ومنها قولهم: إن الفتح مكنهم من إقامة شعائر الدين فكان سببًا للمغفرة.

والرسل - عليهم الصلاة والسلام - معصومون لا يذنبون.. ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾.

فقد اختارهم الله سبحانه لحمل رسالته،

فهم مطهَّرون مبرءون من النقائص.

عرفوا بالصدق، والأمانة، والتبليغ، والفطانة.

ومكارم الأخلاق، وحسن السيرة، ونبل القلب والسريرة ﴿وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار﴾.

ويستحيل عليهم الكذب، والخيانة، وعدم التبليغ.

فهم معصومون فى دائرة الأوامر والنواهى الإلهية.. وشريعة الله..

يؤيدهم وحى الله وتحميهم عصمته.

غير أن الوحى لا يلازم الأنبياء فى كل عمل يصدر منهم، وفى كل قول يبدر منهم، فهم عرضة للخطأ فى بعض أمور الدنيا كما قال المصطفى المعصوم ﷺ: «أنتم أعلم بشئون دنياكم»..

ويمتازون عن سائر البشر بأن الله سبحانه لا يقرهم على الخطأ الدنيوى بعد صدوره منهم ويعاتبهم عليه أحيانًا، كما فى قوله تعالى ﴿عبس وتولى..﴾

وكما فى عتاب الله لرسوله الكريم على الإذن للمنافقين ﴿عفا الله عنك لم أذنت لهم﴾. (سورة التوبة: آية ٤٣)

وعلى أخذ الفداء من الأسرى.. أسرى بدر.. ﴿ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض﴾ (سورة الأنفال: آية ٦٧)

وهذا الذى يعاتبون عليه.. هو ما يسمى ذنبًا فى حقهم عليهم السلام.

وهذه الذنوب لا تنافى الرسالة..

كما لا تنافى البشرية الكاملة..

هى ذنوب لا تنقص من قدرهم، ولا تخل بشرفهم، ولا تنقص من

كرامة هؤلاء الذين اصطفاهم الله لرسالته، وأعدهم لحملها منذ نشأتهم فطهرهم من كل دنس يخدش من شرفهم، أو يحط من مقامهم، وجعلهم مثلاً عليا للبشرية الفاضلة عليهم أفضل الصلاة وأزكى السلام.

ما تقدم من ذنبك قبل الرسالة، وما تأخر بعدها

لم يكن للنبى ﷺ ذنب.. فماذا يغفر له؟

قيل: الصغائر، فانها جائزة على الأنبياء.

وقيل: ترك الأفضل. فليست ذنوبه ﷺ كذنوب بقية الناس.

بل هى: ما قد يفرط منه ﷺ: مما يعاتب عليه، أو يكون مخالفًا لما هو الأولى والأفضل.. مما لا يخل بالشرف والمروءة.. من باب: (حسنات الأبرار سيئات المقربين)

فلو تبرع بعض الأبرار مثلاً، بنصف ماله، كان منه حسنًا جميلاً، ولكن لو قام النبى بهذا التبرع لعد منه تقصيرًا فى مقام النبوة وكان مأخذًا يعاتب عليه لعظم مكانته فى التبرع والجهاد.

وقيل: جميع ما فرط منك من الهفوات مما يصح أن يسمى ذنبًا بالنظر إلى مقامك الشريف، وإن كان لا يسمى ذنبًا بالنظر إلى سواك.

والله سبحانه: قد اصطفى محمدًا من بين خلقه واختاره للرسالة الأخيرة.. وفضله على سائر الأنبياء والرسل.

كانت الرسالة من الله لصفيه.. هبة، ومنحة، واصطفاء

كانت الرسالة من الله فتحًا.. ﴿إنا فتحنا لك فتحًا مبينًا﴾

وكانت الرسالة عطاء ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾ كانت الرسالة فضلاً من الله المعطى.. ولا حرج على فضل الله الوهاب.

منح رسوله ﷺ الخلق العظيم ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾

وعلَّمه وتفضَّل عليه ﴿وعلَّمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيمًا﴾

ورباه، وهذَّبه وأدبه «أدبنى ربى فأحسن تأديبى»

حتى الفتح هذا وإن كان من الله، فقد أضاف الله سبحانه جزاء هذا الفتح إلى الرسول الكريم، فالفتح فتح الله ﴿إنا فتحنا﴾ وهو فتح للنبى ﷺ ﴿لك﴾، ومغفرة لما تقدم من ذنبك وما تأخر، وهداية لك إلى صراط الله.

ويتم نعمته عليك:

بانتصارك على أعدائك، وبعلو شأنك دنيا وآخرة، أو بالنبوة والحكمة، أو بفتح مكة والطائف وخيبر.. أو بخضوع من استكبر وطاعة من تجبَّر.. أو بإظهار دينك على الدين كله وإعلاء شأنه، وانتشاره فى البلاد، ورفع ذكرك فى الدنيا والآخرة.

أو: الدين نعمة.. وإتمامه على يديك يا محمد ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينًا﴾.

اليوم أى: يوم مبعث محمد، كمل الدين الذى نزل ناقصًا (خاصًّا) على كل رسول، ونزل كاملاً على محمد ﷺ.

﴿ويهديك صراطًا مستقيمًا﴾

يهديك: يثبتك على الهدى، ويكفل لك التوفيق فى جميع شئونك.

أو: هى الشريعة الإلهية التى تضمن للناس خيرهم وصلاحهم فى كل زمان ومكان.

أو: يرشدك طريقًا من الدين لا اعوجاج فيه يستقيم بك إلى رضا ربك.

﴿قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم دينًا قيمًا ملة إبراهيم حنيفًا﴾
(سورة الأنعام: آية ١٦١)

فالهداية إلى صراط مستقيم تقرها هذه الآية من سورة الأنعام.

بهدم حصون خيبر.

أو: بفتح مكة ذلك الفتح العظيم الذى تم بلا مقاومة ولا دفاع ولا إراقة دماء، أو بالنصر يوم حنين بعد أن انهزم الصحابة وثبت الرسول ﷺ ومعه نفر قليل فكتب الله لهم النصر يومئذ..

أو: وينصرك على أعدائك نصرًا ذا عز بالغ فيكون المراد بالنصر النصر العام..

﴿ولينصرن الله من ينصره﴾

هذه هبات.. ومزايا.. ومنح.. اختص بها رسول الله ﷺ.

لم تمنح لأحد من قبله.. ولن تكون لأحد من بعده..

فرح بها رسول الله ﷺ.. فرح بهذا الفيء الربانى الذى أفاءه الله عليه وعلى المؤمنين معه..

فرح بالفتح المبين.. وبالمغفرة الشاملة.. وبالنعمة التامة.. وبالهداية إلى الصراط المستقيم.. وفرح بالنصر العزيز الكريم.. وفرح برضا الله عن المؤمنين.

لما نزلت هذه الآيات من سورة الفتح قال ﷺ: لقد نزلت على آيات هى أحب إلى مما طلعت عليه الشمس.. أحب إلى من الدنيا وما فيها..

لما نزلت عليه هذه الآيات من سورة الفتح، تلقى -ﷺ- ما فيها من منح وبشارات ببالغ الثناء لمولاه، وأخذ يدعو ويشكر ويصلى لربه حتى

تورمت قدماه.. وأخذ يجد فى العبادة حتى أشفق عليه أصحابه وقالوا له: أتفعل هذا بنفسك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟

فقال ﷺ: أفلا أكون عبدًا شكورًا.

بعد هذا الافتتاح الذى افتتحت به هذه السورة الكريمة وفيه تبيان ما أكرم الله به رسوله المصطفى -ﷺ- وما أنعم على المختار صفيه وحبيبه..

يمضى سياق الآيات بعد ذلك مبينًا نعم الله على المؤمنين، وما أفاء عليهم فى الدنيا من سكينة، وما ادخره لهم فى الآخرة من رضا ورضوان وغفران. يقول المولى:

﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ
لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ
ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ٤ لِّيُدۡخِلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن
تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ
عِندَ ٱللَّهِ فَوۡزًا عَظِيمٗا ٥ ﴾

السكينة: الثبات والطمأنينة. (من السكون مشتقة) والمراد بها ما يسمى فى العصر الحديث (بالروح المعنوية للجيش).

وأنزل السكينة: خلقها ووضعها فى القلوب.

إيمانا مع إيمانهم: يقيناً مع يقينهم. يكفِّر: يغطى ولا يظهر. والمراد المغفرة.

وقد أنزل الله السكينة فى قلوب المؤمنين وهم بالحديبية مرتين:

١ - مرة حين أرجف بقتل عثمان رضى الله عنه، وثارت قلوبهم، فتلقاها الله بسكينته فبايعوا النبى ﷺ على الموت.

وفى ذلك يقول الله ﴿لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم﴾

٢ - وأنزلها مرة أخرى حين تشددت قريش فى شروط الصلح، وكاد الشيطان ينزغ بينهم بسبب قبول الرسول ﷺ لهذه الشروط، التى عز على

المسلمين قبولها فتداركهم الله برحمته وأنزل سكينته عليهم فأطمأنوا إلى ما قبله رسول الله ﷺ.

وهذه السكينة هى المذكورة فى قوله تعالى فى هذه السورة ﴿إذ جعل الذين كفروا فى قلوبهم الحمية حمية الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين﴾..

الإيمان: هو التصديق بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر..

لابد فى الإيمان من التصديق بكل هذه الجزئيات.

ومن أنكر جزئية من هذه الجزئيات لا يكون محصلاً للإيمان.

ولابد فى الإيمان من العمل: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً﴾ ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلاً﴾.

والعمل بدون إيمان لا قيمة له.

والإيمان يزيد وينقص:

وقد صرح القرآن فى آيات كثيرة أن الإيمان يزيد:

﴿ويزداد الذين آمنوا إيماناً﴾

﴿ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم﴾

﴿فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً﴾

ولله جنود السموات والأرض:

المراد بالجنود: القوى المودعة فى الكون: محسة كانت: كالصواعق والعواصف والخسف والصيحة.

أم غير محسة: كعالم الجن والملائكة. هو وحده يتصرف فى هذه القوى كيف شاء حسبما تقتضيه حكمته فيسلطها على من يشاء، وينصر بها من يشاء.

وكان الله عليمًا بخواص هذه الجنود وبما أودعه فيها من قوى، حكيمًا فى تقديره وتدبيره فيصرف ما شاء من الجنود إلى من شاء من الخلق.

وهذا العطاء وذلك الإحسان هو من مالـك الملك من بيده ملكـوت السموات والأرض، ممن له جنود السموات والأرض كلهـا مسخرة لـه عاملة بمشيئته: مشيئة العليم الذى يقضى بعلم، الحكيم الذى كل أموره بتقدير وحكمة.

ليدخل المؤمنين والمؤمنات:

وقد قرن المولى سبحانه المؤمنات إلى المؤمنين فى ثمار هذا الفتح ونتائج هذا الجهاد، إشارة إلى أن النساء إذا أدين رسالتهن، وأدين واجبهن نحو دينهن وأسرتهن وأزواجهن، كن شريكات للرجال فى الرضا والمغفرة.

يؤيد هذا الحديث الذى رواه مسلم من أن أسماء بنت يزيد الأنصارى، أتت النبى ﷺ، وهو بين أصحابه فقالت: بأبى وأمى أنت يا رسول الله. أنا وافدة النساء إليك..

إن الله عز وجل بعثك إلى الرجال والنساء كافة، فآمنا بك وبإلهك..

إنا معشر النساء محصورات مقصـورات، قواعـد بيوتكم، وحـاملات أولادكم..

وإنكم معشر الرجـال فضلتم علينا بـالجمع.. والجمـاعات.. وعيـادة المرضى، وشهود الجنائز والحج بعد الحج، وأفضل من ذلك الجهاد فى سبيل الله عز وجل

وإن أحدكم إذا خرج حاجًا أو معتمرًا، أو مجاهدًا غزلنا لكم أثوابكم، وربينا لكم أولادكم، أنشارككم فى هذا الأجر والخير؟

فقال ﷺ: «اعلمى أيتها المـرأة وأعلمى من خلفك من النسـاء أن حسن تبعل المرأة لزوجها وطلبها مرضاته واتباعها موافقته يعـدل ذلك كله».

.. فقد كان من شمول نعمة هذا الفتح مشاركة المؤمنات للمؤمنين فيما وعدهم به الله من دخول الجنة وتكفير السيئات.

فالمؤمنون والمؤمنات يدخلهم الله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها متجاوزًا عن سيئاتهم.

وفى تقديم إدخال المؤمنين والمؤمنات الجنة على تكفير السيئات:

إشارة إلى أن دخول الجنة أمر مقضى به لكل مؤمن ومؤمنة سواء أكان ذلك من غير عذاب، أو بعد أن يستوفى العصاة من المؤمنين عذابهم، فهم جميعًا موعودون بالجنة.

أما تكفير السيئات فهو إلى رحمة الله سبحانه.

لذا قدَّم الادخال على التكفير مع أن الأمر بالعكس.

وتكفير السيئات: هو سترها وعدم إظهارها.

وكان ذلك: أى ذلك الوعد بإدخالهم الجنة وتكفير سيئاتهم.

عند الله: أى فى حكمه فوزًا عظيمًا

ثم لما فرغ من ذكر ما وعد به صالح المؤمنين، ذكر ما يستحقه غيرهم، فقال:

﴿ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ
وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ
وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ۝٦ وَلِلَّهِ
جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝٧ ﴾

المنافقون: هم الذين يظهرون الإسلام ويضمرون الكفر

هؤلاء يعذبهم الله فى الدنيا عذابًا نفسيًّا يحز فى نفوسهم، ويؤلم قلوبهم، ويملؤها غمًّا وهمًّا بسبب ما يشاهدونه من ظهور كلمة الإسلام، وقوة جريانه وسرعة انتشاره وما يصيب أعداء الإسلام من قتل وقهر وأسر وفى الآخرة يعذبهم الله بعذاب جهنم.

وفى تقديم المنافقين على المشركين، دلالة على أنهم أشد عذابًا من المشركين يوم القيامة، وذلك لأن النفاق أغلظ إثما وأشنع جرما من الشرك، لأن الشرك وجه واحد من وجوه الشر، أما النفاق فهو وجوه كثيرة من الشر يعيش بها المنافق، ويلبسها وجهًا وجهًا ويتبادلها حالاً بعد حال.

فالمنافقون كانوا أشد على المؤمنين من الكافر المجاهر لأن المؤمن كان يتوقى المشرك المجاهر، وكان يخالط المنافق لظنه بإيمانه، وكان المنافق يفشى أسرار المؤمن بعد أن يفضى بها المؤمن إليه؛ فالمنافق أشد خطرًا على الإسلام والمسلمين من المشركين؛ لأن النفاق قوة خفية تدبر المكائد للمسلمين، وتتستر بقناع من الإسلام يخفى شرها وحقيقة أمرها.

الظانين بالله ظن السوء:

ظنهم أن الله تعالى لا ينصر الرسول والمؤمنين ولا يرجعهم إلى مكة ظافرين، وظنهم أن كلمة الكفر تعلو كلمة الإسلام.

﴿بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول.. الآية﴾.

أو ظن المشركين بالله فى الإشراك، كما فى قوله تعالى:

﴿إن يتبعون إلا الظن..﴾.

عليهم دائرة السوء:

ما يظنونه بالمؤمنين دائر عليهم، وراجع إليهم وحائق بهم، فالعذاب والهلاك اللذان يتوقعونه للمؤمنين واقعان عليهم نازلان بهم.

والسوء: الفساد أو الهلاك والدمار.

وغضب الله عليهم: سخطه عليهم، والغضب صفة قديمة قائمة بذاته تعالى من آثارها إنزال العقوبة على المغضوب عليهم، وقيل: نالهم غضب من الله.

ولعنهم: طردهم من رحمته وأعد لهم جهنم يصلونها وساءت مصيرًا ومنزلا يصير إليه هؤلاء وأولئك.

وأعاد قوله ولله جنود السموات والأرض: للإشارة إلى أن الجنود هنا، جنود العذاب بمناسبة ذكر المنافقين والمشركين، فلو أراد تعذيب المنافقين والمشركين فى الدنيا لما أعجزه ذلك ولأرسل عليهم جنود العذاب، ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمّى..

* * *

خلاصة ما سلف:

أنه قد ترتب على هذا الفتح أربعة أشياء للنبى ﷺ:

١ - مغفرة الذنوب.

٢ - اجتماع الملك والنبوة.

٣ - الهداية إلى الصراط المستقيم.

٤ - العزة والمنعة.

وفاز المؤمنون بأربعة أشياء:

١ - الطمأنينة والوقار.

٢ - ازدياد الإيمان.

٣ - دخول الجنات.

٤ - تكفير السيئات.

وجازى الكفار بأربعة أشياء:

١ - العذاب.

٢ - الغضب.

٣ - اللعنة.

٤ - دخول جهنم.

وبعد أن أتم الكلام على ما لكل من النبى -ﷺ- والمؤمنين من الثمرات التى ترتبت على عمله، أعقبه بما يعم ويشمل ذلك كله (وبما يعمهم جميعًا) مؤمنين ومنذرين فذكر أنه أرسل رسوله شاهدًا على أمته ﴿ويكون الرسول عليكم شهيدًا﴾ ومبشرًا لها بالثواب، ومنذرًا بالعقاب وأبان أن فائدة هذا الإرسال، هو الإيمان بالله وتسبيحه غدوة وعشيا ونصرة دينه.

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ⑧ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ⑨ ﴾

اصطفاء النبى الكريم - ﷺ - للرسالة، منحة خالصة من الله سبحانه وتعالى، وإحسان ليس للنبى ﷺ دخل فيه ولا اجتهاد.

إنه رحمة من رحمة الله، وفضل من فضله، يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

فاصطفاء المولى لعبده محمد ﷺ عطية من العطايا الجليلة وهبة من الهبات التى تفضَّل الله بها على رسوله، فكانت الرسالة نعمة أخرى من نعم المولى، أضيفت إلى النعم الأخرى: نعم الفتح، والمغفرة، والنصر.

شاهدًا: على أمتك بتبليغ الرسالة إليهم كاملة وأنها أمانة فى أعناقهم يبلغونها من بعده، أو شاهدًا على أعمالهم يوم القيامة من طاعة أو معصية.

والحكمة فى جعله ﷺ شاهدًا بين يدى ربه - والله هو العليم الخبير لا يغرب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء - هى إظهار للعدل الإلـهى، والزام للناس بما اقترفوه من آثام وكشفه لهم بما لا يدع مجالاً للإنكار لئلا يكون للناس على الله حجة.

ومبشرًا: من أطاعك بالجنة.

ونذيرًا: لأهل المعصية بالنار.

وقد جرت سنة الله فى خلقة أن يجمع بين الترغيب والترهيب، ويشفع الوعد بالوعيد؛ لذا قرن البشرى بالإنذار، ومن الناس من ينفعه الترغيب وآخرون لا ينفعهم إلا التخويف والتهديد، لذا أكثر الله سبحانه من ذكرهما فى القرآن ﴿إنا أرسلناك بالحق بشيرًا ونذيرًا﴾.

لتؤمنوا بالله ورسوله: فالثمرة العليا من إرساله ﷺ شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا، هى أن تؤمنوا بالله ورسوله وتنصروا الله، ونصرة الله بنصرة دينه.

فاللام: لام التعليل.

والضمائر فى الأفعال الثلاثة: تعزروه، توقروه، تسبحوه.

قيل: الضمائر كلها فى هذه الأفعال الثلاثة لله سبحانه وتعالى.

ويكون معنى:

تعزروه: تعظموه وتفخموه وتنصروه.

والتعزير: التعظيم والتوقير.

والمراد: تعزير دينه ورسوله.

توقروه: تعظموه وتقدروه حق قدره.

وتسبحوه: تنزهوه وتقدسوه وتنزهوا الله عما يقوله الجاحدون.

فالضمائر كلها راجعة إلى الله سبحانه - وذلك هو الأولى والأصح - ومن فرّق الضمائر فقد أبعد: فقد قال بعض المفسرين: إن بعض الضمائر هنا عائد إلى رسول الله ﷺ.

فالتعزير للرسول ﷺ - وإضافة هذا التعزير للرسول تكريم له.

ويشهد لهذا الرأى قوله تعالى: ﴿فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون﴾.

(سورة الأعراف: آية ١٥٧)

فالضمائر هنا كلها عائدة إلى الرسول ﷺ والقرآن يفسر بعضه بعضًا.

أما التوقير، فهو لله وللرسول، والتسبيح خالص لله وحده.

فعلى ذلك يكون بعض الكلام راجعًا إلى الله سبحانه، وهو «تسبحوه» من غير خلاف، وبعضه راجعًا إلى رسوله ﷺ وهو «تعزروه وتوقروه» أى تدعوه بالرسالة والنبوة وتنادونه بيارسول الله ولا تدعونه بالاسم يا محمد أو بالكنيه: يا أبا القاسم..

بكرة وأصيلا: أى: صباحًا ومساء أو طرفا النهار لأن البكرة أول النهار والأصيل: آخر النهار (وقت العصر) أى: جميع النهار، والمراد من تسبيحه - جلَّ وعلا - بكرة وأصيلًا: المحافظة على ذكره دائمًا فى كل الأوقات.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ ﴾

البيعة أو المبايعة = هى أخذ الميثاق على الطاعة وإعطاء العهد عليها للإمام. والمراد بها هنا: «بيعة الرضوان» بالحديبية أو «بيعة الفداء»، وبيعة الرضوان هذه هى بيعة «الفداء» التى عقدها المسلمون مع رسول الله ﷺ على حرب قريش عندما أشيع يوم الحديبية بقتل عثمان رضى الله عنه، عندما وصلت هذه الشاعة إلى آذان المسلمين ثارت قلوبهم وصمموا على الانتقام من قريش ونادى منادى رسول الله ﷺ: البيعة.. البيعة..

فأقبل المسلمون مسرعين يجيبون داعى الله ورسوله ﷺ.

بايعوه على الثبات فى وجه قريش.. وعلى عدم الفرار من الزحف حتى ينصرهم الله، أو يموتوا شهداء.

وقد شرّف الله هؤلاء المبايعين حيث جعل بيعتهم مع رسوله -ﷺ- بيعة معه جلّ وعلا.. وهذا يشعر بعلو قدره ﷺ حيث جعلت البيعة التى عقدت معه ﷺ بيعة مع الله عز وجل.

كما أن طاعته ﷺ طاعة لله تعالى ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾..

يد الله

ولعظم هذه البيعة زادها الله تأكيدًا وتوثيقًا:

فجعل يده فوق يد كل مؤمن مبايع.

والأمر فى هذا على سبيل التصوير والتمثيل.

وإلا فالله تعالى منزه عن الجوارح.

ولله تعالى «يد» وردت بها آيات من القرآن فوجب علينا الإيمان بها وإن لم نعرف معناها.

وفريق أوَّل اليد وقال يد الله فوق أيديهم، أى: قدرة الله ونصرته وقوته فوق قدرة المبايعين ونصرتهم..

وفريق من المفسرين قال: إن يد الله: أى نعمة الله عليهم بتوفيقهم للهداية والمبايعة فوق نعمتهم وهى مبايعتهم له ﷺ.

فمن نكث: أى فمن نقض العهد الذى عقده مع النبى ﷺ فإن ضرر ذلك راجع إليه ولا يضرَّن إلا نفسه.

ومن أوفى: أى ومن وفى بعهد البيعة فله الأجر والثواب.

الوفاء..

ولما كانت هذه البيعة عقدًا مبرمًا ورباطًا محكمًا مع الله، فقد جعل الله جزاء من أوفى بها الأجر العظيم..

﴿ومن أوفى بما عاهد عليهُ اللهَ فسيؤتيه أجرًا عظيمًا﴾.

والهاء فى (عليه) مضمومة فى قراءة حفص.

قال صاحب كتاب (الكشف عن وجوه القراءات السبع):

قرأ حفص (عليهُ) بضم الهاء، أتى به على الأصل بوصل الهاء بواو.

ثم حذف الواو (لسكونها وسكون اللام بعدها، فبقيت الضمة).

وقرأ الباقون بالكسر: لأنهم أبدلوا من ضمة الهاء كسرة للياء التى قبلها لأن الكسرة بالياء أشبه وهى أخف بعد الياء فانقلبت الواو ياء وحذفت لسكونها وسكون اللام بعدها.

وقالوا: إن الهاء فى «به» و «عليه» الهاء هى الاسم. لكن لما قلت حروف الاسم هنا وكانت على حرف واحد، وذلك الحرف الواحد قليل وضعيف فقووه بزيادة واو فقالوا: بهو وعليهو. وهذا هو الأصل.

كذلك قالوا: إن حجة من وصل الهاء بياء - إذا كان قبلها ياء - وهو ابن كثير - أنه كسر الهاء للياء التى قبلها لخفاء الهاء، فلما كسرها أبدل من الواو التى زيدت،لتقوية الهاء: ياء إذ ليس فى كلام العرب واو ساكنة قبلها كسرة فقال: فيهى، وعليهى.

﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا
فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ
لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ
ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ
أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا
بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ
سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ
وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ ﴾

المخلَّفون من الأعراب:

هم قوم من الأعراب (سكان البوادى) كانوا من الضاربين خيامهم على مقربة من المدينة.

استنفرهم رسول الله ﷺ حين أراد الخروج إلى مكة معتمرًا.

ولكن هؤلاء الأعراب لم يكن الإيمان قد تمكن فى قلوبهم فلم يذهبوا معه وتخلفوا.

ورأوا أنه ﷺ لن يرجع هو وأصحابه إلى المدينة.

وصورت لهم أذهانهم أنهم إن خرجوا معه فسيهلكون فيمن يهلك من

المسلمين، فتخلفوا عن رسول الله ﷺ ولم يذهبوا معه فسمى الله هؤلاء المتخلفين باسم «المخلفين».

أى: المتروكين. وذلك ذمًّا لهم واحتقارًا لأمرهم، كأن الخارجين من المسلمين تركوهم خلفهم استهانة بهم واحتقاراً لهم، أو المخلفون، لأن الله خلَّفهم عن صحبة نبيه.

يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم: أى كلامهم من طرف اللسان غير مطابق لما فى القلب، فهو كذب صراح إذ لم يكونوا صادقين فى اعتذارهم. وهذا هو النفاق الخالص.

اعتذار المخلفين: ولقد أوحى الله إلى رسوله ﷺ بموقف المخلفين فكشف له (وهو لم يرجع إليهم بعد) كشف له حقيقة أمرهم وكشف له ظنهم السيء بالمسلمين المجاهدين.

وأطلعه على ما سيعتذرون به إذا رجع المؤمنون إليهم من اعتذارات كاذبة ظنوا أنها تبعد عنهم عار التخلف والجبن.

وكانت هذه الاعتذارات هى قولهم لرسول الله ﷺ إن أموالنا وأهلنا قد شغلونا عن الخروج معك إلى العمرة.

ولم يكن وراءنا من يقوم مقامنا ويخلفنا على رعايتها وحمايتها من الضياع.

وأردفوا هذه الاعتذارات بطلب الاستغفار من الرسول ﷺ إشارة منهم إلى أنهم معترفون بالتقصير... لقد كذبوا على الله ورسوله ﷺ وخيلت لهم أوهامهم أن تلك الأعذار الواهية تنطلى على الله ورسوله ﷺ.

وقد فضحهم المولى سبحانه وتعالى - وبين كذبهم فى اعتذارهم.

وإن قولهم لم يصدر عن عقيدة، بل هو قول باللسان فحسب ﴿يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم﴾ فسجل عليهم المولى بذلك الخزى والوبال والخسران.

وكشف عن سوء ظنهم فقال لهم: إن السبب الحقيقى الذى حملكم على التخلف هو ظنكم أن لن يرجع الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبدًا، وأنكم لو خرجتم معهم فلن تعودوا إلى المدينة وزين ذلك الظن فى قلوبكم خوفكم من أهل مكة وحلفائهم.

وظننتم بالله ظن السوء، إذ سولت لكم أنفسكم أن الله تعالى لن ينصر نبيه ﷺ وكنتم قومًا بورًا: هالكين ضالين تستحقون الوبال والخسران.

وقد أبان لهم المولى سبحانه أن ذهابهم مع الرسول ﷺ لا يغنى عنه شيئًا، وأن تخلفهم عنه لا يضره شيئًا.

كما أن تخلفهم لا يفيدهم شيئا فى أموالهم وأهليهم وأنفسهم.

وذهابهم لا ينقصهم شيئًا من أموالهم وأهليهم وأنفسهم إلا باذن الله.

وأمر المولى رسوله ﷺ أن يبلغهم بأن المولى خبير بكل ما يظهرون وما يضمرون.

وكشف المولى سبحانه عن سرهم وسوء ظنهم فقال لهم: إن السبب الذى حملكم على التخلف هو ظنكم أن لن يعود الرسول ومن معه من المؤمنين إلى أهليهم أبدًا.

وأنكم اعتقدتم أن الرسول ﷺ والمؤمنين سيقتلون وتستأصل شأفتهم فلا يرجعون إلى أهليهم أبدًا.

وزين لكم الشيطان ذلك الظن حتى قعدتم عن صحبته.

وظننتم أن الله لن ينصر محمدًا ﷺ وصحبه المؤمنين على أعدائهم.

وكنتم بظنكم هذا مستوجبين سخط الله وشديد عقابه..

وبعد أن بين سبحانه وتعالى سوء ظنهم وضعف إيمانهم وضعف ثقتهم بالله أعلن حكمًا نهائيًّا وقاعدة عامة، وهى:

أن من لم يجمع بين الإيمان بالله والإيمان برسوله عليه الصلاة والسلام فهو كافر وقد أعد الله للكافرين نارًا وسعيرًا وعذابًا أليمًا.

ولله ملك السموات والأرض: ولله السلطان والتصرف فى السموات والأرض فلا يقدر أحد أن يدفعه عما أراد بكم من تعذيب على نفاقكم إن أصررتم عليه أو عفو عنكم إن أنتم تبتم من نفاقكم وكفركم.

وهذا حسم لأطماعهم فى استغفاره ﷺ لهم وهم على هذه الحال.

ثم أطمعهم فى مغفرته وعفوه أن تابوا وأنابوا إليه فقال: وكان الله غفورًا رحيمًا يغفر للتائبين ويرحمهم إذا أنابوا إليه وأخلصوا العمل له.

﴿ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ
لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ قُل لَّن
تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا۟
لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ ﴾

المغانم: مغانم خيبر.

فإنه ﷺ رجع من الحديبية فى ذى الحجة من السنة السادسة الهجرية، وأقام بالمدينة بعد ذى الحجة وأوائل المحرم.

ثم غزا خيبر - بمن شهد الحديبية فقط - ففتحها فى أوائل السنة السابعة هـ - وغنم منها أموالاً كثيرة خصهم بها ثم كانت غزوة «تبوك» بعد خيبر.

ذرونا : دعونا واتركونا نتبعكم ونشهد معكم غزوة خيبر.

قل لن تتبعونا: إلى خيبر.

كذلك قال الله من قبل.

سيقول لك الذين تخلفوا عنك فى عمرة الحديبية وتعللوا بانشغالهم بأهلهم وأموالهم، سيقولون: دعونا نتبعكم ونسير معكم إلى غزو خيبر حين توقعوا ما سيكون فيها من مغانم.

(وفى هذا وعد للمبايعين الموفقين بالغنيمة، وللمتخلفين بالحرمان).

يريدون أن يبدِّلوا كلام الله: أى: وعد الله فإن الله تعالى وعد أهل الحديبية وحدهم بمغانم خيبر لا يشاركهم فيها غيرهم من الأعراب.

وقد جاء فى صحيح البخارى «ان الله وعد أهل الحديبية أن يعوضهم من مغانم مكة مغانم خيبر إذا قفلوا موادعين لا يصيبون شيئًا».

ثم أمر الله رسوله ﷺ أن يقول لهم إقناطا وتيئيسا من الذهاب إلى خيبر:

قل لن تتبعونا: لا تأذن لهم فى الخروج معك، معاقبة لهم فإن امتناعهم عن الخروج إلى الحديبية ما حصل إلا لأنهم كانوا يتوقعون المغرم، ولا يتوقعون المغنم فلما انعكست الآية فى خيبر طلبوا المغنم فعاقبهم الله بطردهم من المغانم.

ثم أكد هذا المنع بقوله:

كذلكم قال الله من قبل: أى هكذا قال الله لنا من قبل مرجعنا من الحديبية إليكم: إن غنيمة خيبر لمن شهد الحديبية معنا، ولستم ممن شهدها فليس لكم أن تتبعونا لأن غنيمتها لغيركم.

فسيقولون بل تحسدوننا: اى أن ذلك ليس بقول الله (هكذا يقول المخلفون للمؤمنين) بل هو قولكم أنتم حسدًا من عند أنفسكم...

من بعد ما تبين لكم ما نعمنا به من الراحة أثناء سفركم إلى الحديبية وتحسدوننا أن نصيب معكم مغنمًا.

وردَّ عليهم المولى سبحانه اتهام رسوله وصحبه بالحسد، فقال:

بل كانوا لا يفقهون إلا قليلا:

أى ما الأمر كما يقول هؤلاء المنافقون من الأعراب من أنكم تمنعونهم

عن اتباعكم حسدًا منكم لهم بل إنما لأنهم لا يفقهـون من أمر الـدين إلا قليلا ولو فقهوا ما قالوا ذلك.

وهؤلاء المخلفون، عاقبهم الله على تخلفهم عن الحديبية بحرمانهم من الجهاد فى خيبر فقط، ثم سوَّغ لهم فيما بعد أن يخرجوا مجاهدين فى سبيل الله.

﴿ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ ﴾

كان لحرمان المخلفين من مغانم خيبر درس قاس وعظة بالغة فى نفوسهم.

وقد فتح الله باب التوبة لهم.. عندما أمر رسوله ﷺ أن يخبرهم بحدوث حرب شديدة وسيدعون إلى الاشتراك فى هذه الحرب، ومقاتلة قوم شديدى القوى لهم خبرة بالمعارك ولهم شكيمة قوية فى القتال وفنون الحرب.

تحاربونهم على أحد أمرين: أما القتال وإما أن يسلموا..

فإن بذلتم أنفسكم وأرواحكم فى سبيل الله فسيكفل الله لكم الثواب العظيم فى الدنيا والآخرة، وإن ترددتم وتراجعتم وتوليتم كما توليتم من قبل فى يوم الحديبية، فقد حقت عليكم كلمة العذاب واستوجبتم من الله العذاب المؤلم والرجز الشديد.

المراد بالقوم أولى البأس الشديد:

قيل: هوازن وغطفان (فى غزوة حنين).

وقيل: هم بنو حنيفة أصحاب مسيلمة الكذاب وغزاهم أبو بكر.

وقيل: أهل فارس والروم الذين غزاهم عمر.

وقال ابن جرير: «إنه لم يقم دليل من نقل ولا من عقل على تعيين

هؤلاء القوم فلندع الأمر على إجماله دون حاجة إلى التعيين».

والبأس: شدة المراس في القتال.

وقال صاحب كتاب «سورة الفتح» الدكتور الكومى: فى هذه الموقعة - موقعة حنين - تتجلى دعوة المخلفين إلى القتال، كما تتجلى قوة هوازن ويصدق عليهم أنهم قوم أولو بأس شديد وكذلك يتجلى نصره سبحانه للمؤمنين الذين وعدهم به في قوله ﴿تُقاتلونهم أو يسلمون﴾ فإن هوازان ما لبثوا أن جاءوا مسلمين بعد أن تشتت شملهم وتفرق جمعهم، وسبيت نساؤهم وغنمت أموالهم».

يوم حنين

أقام المسلمون بمكة بعد أن فتحوها - خمسة عشر يومًا - فرحين بنصر الله وبينما الرسول عليه الصلاة والسلام يفقه أهل مكة فى الدين وينظم شئون الدعوة والمسلمين.. وفيما هو كذلك كانت هوازن وثقيف قد استعدوا لقتال المسلمين فبثوا قواهم في جبال وشعاب مدينة (حنين).. وعلم ﷺ بنبأ استعدادهم فخرج إليهم بالجيش الذى فتح به مكة دون أن يتخلف من جنوده أحد، وانضم إلى جيش المسلمين ألفان من أهل مكة فكان عدد الجيش الإسلامى قرابة اثنى عشر ألف مقاتل، ولتجه الجيش الاسلامى إلى مضيق حنين.. وقد أعجب كثير من المسلمين بقوتهم حتى قالوا: لن نغلب اليوم عن قلة.. والتقى المسلمون بهوازن وثقيف في عماية الصبح.. وانهالت النبال على المسلمين من كل ناحية وارتاع المسلمون.. وفوجئوا بنبال هوازن وثقيف وكانوا رماة ذوى مهارة حربية ودراية بفنون القتال، وانهزم

المسلمون.. وفروا.. وثبت رسول الله ﷺ فى نفر من أهل بيته.. ثم عاد المسلمون مستبسلين فى الدفاع حول رسول الله ﷺ.

وسرعان ما تبدد شمل الكفار وانهزموا مخلفين وراءهم قتلى وجرحى وأموالاً غنمها المسلمون.

وعن ذلك يقول الله فى سورة التوبة ﴿ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئًا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين، ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودًا لم تروها وعذّب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين﴾.

﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ⑰ ﴾

فى هذه الآية الشريفة ذكر الأعذار المبيحة للتخلف عن الجهاد:

منها: ما هو عذر لازم كالعمى والعرج.

ومنها ما هو عارض يطرأ ويزول كالمرض.

والحرج: الإثم والذنب.

يقول المولى: لا إثم على ذوى الأعذار إذا تخلفوا عن الجهاد وشهود الحرب مع المؤمنين.

ثم رغَّب سبحانه فى الجهاد وطاعة الله ورسوله. وأوعد على تركه فقال: ومن يتول (أى يعرض عن القتال والجهاد) يعذبه عذابًا أليمًا.

﴿ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ
فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾
وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ ﴾

الرضا: ما يقابل السخط.

المؤمنين: أهل الحديبية: ورضاه عنهم لمبايعتهم رسوله ﷺ تحت ظلال شجرة الطلح وهى المعروفة بالسنط.

يبايعونك: هى بيعة الرضوان (وكانت بالحديبية).

ما فى قلوبهم: من الصدق والإخلاص فى المبايعة.

السكينة: الطمأنينة.

أثابهم: عوضهم (بدلا مما رجوه من الظفر بغنائم أهل مكة).

فتحًا قريبًا: هو فتح خيبر عقب انصرافهم من الحديبية. كان فى السنة السادسة من الهجرة بعد انصراف المسلمين من الحديبية بشهرين.

مغانم كثيرة: هى مغانم خيبر، وكانت خيبر أرضًا ذات عقار وأموال قسمها رسول الله ﷺ بين المقاتلين، وكانت بين الحديبية ومكة.

قال سيد قطب: ﴿وأثابهم فتحًا قريبا﴾: هو هذا الصلح بظروفه التى جعلت منه فتحًا، وجعلته بدء فتوح كثيرة، قد يكون فتح خيبر واحدًا منها، كما ذكره أغلب المفسرين.

ومغانم كثيرة يأخذونها: إما مع الفتح إن كان المقصود فتح خيبر، وإما تاليًا له، إن كان الفتح هو هذا الصلح.

* * *

بعد أن بيَّن حال المخالفين فيما سلف.

عاد فى هذه الآيات إلى بيان حال المبايعين، فأبان رضاه عنهم:

﴿ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ ﴾

مغانم كثيرة تأخذونها: أى وعدكم الله مغانم كثيرة من غنائم أهل لشرك إلى يوم القيامة ولكن عجل لكم هذه: أى مغانم خيبر، فالغنائم عامة شاملة منها المعجل: كغنائم خيبر، ويوم حنين فى عهده ﷺ، ومنها المؤجل: كفتح فارس والروم وما وراءهما من أقطار فى عهد الصحابة.

فعجل لكم هذه: أى غنائم خيبر.

وأشار (بهذه) كأنها حاضرة محسة.

وقيل: صلح الحديبية لأن هذا الصلح هو الذى عجله الله للمسلمين.

وكف أيدى الناس عنكم: أى أيدى أهل خيبر فانتصرتم عليهم وعلى حلفائهم أسد وغطفان.

وقيل: أيدى أهل مكة كفهم عنكم بالصلح.

ولتكون: أى هزيمتهم وسلامتكم. وقيل حادثة صلح الحديبية.

آية: عبرة يعرف بها المؤمنون أن الله ناصرهم وحارسهم.

ويعرفون بها صدق الرسول ﷺ فيما أنبأهم به من دخول المسجد الحرام.

ولم تمض الأيام حتى تبين للمؤمنين أن صلح الحديبية كان خيرًا لهم وشرًّا على المشركين.

ويهديكم صراطًا مستقيمًا: جزاء طاعتكم وامتثالكم.

إن الله وعدكم مغانم تقدرون الآن على أخذها.

وأيضًا وعدكم مغانم أخرى تعجزون الآن عن أخذها ولكن الله تعالى قد حفظها لكم، ولابد أن تأخذوها فى المستقبل القريب أو البعيد.

وكان الله على كل شىء قديرًا فلا يعجز أن يهبكم من الغنائم فوق ما تتصورون.

ويقول سيد قطب عند تفسير قوله تعالى ﴿وأخرى لم تقدروا عليها..﴾ يقول:

تختلف الروايات فى هذه الأخرى:

أهى فتح مكة؟ أهى فتح خيبر؟ أهى فتوح مملكتى كسرى وقيصر؟ أهى فتوح المسلمين التى تلت هذه الوقعة - وقعة الحديبية - جميعًا؟.

وأقرب ما يناسب السياق أن تكون هى فتح مكة - بعد صلح الحديبية - وبسبب من هذا الصلح الذى لم يدم سوى عامين، ثم نقضه المشركون ففتح الله مكة للمسلمين بلا قتال تقريبًا، وهى التى استعصت عليهم من قبل وهاجمتهم فى عقر دارهم، وردتهم عام الحديبية.

ثم أحاط الله بها، وسلمها لهم بلا قتال.

وكان الله على كل شىء قديرًا، فهذه بشرى ملفوفة فى هذا الموضع لم يحددها، لأنها كانت عند نزول هذه الآية غيبًا من غيب الله.. أشار الله إليه هذه الإشارة لبث الطمأنينة والرضى والتطلع والاستبشار».

﴿ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾

ووعدكم الله فتح بلاد أخرى لم تقدروا عليها، قد حفظها لكم حتى تفتحوها - كفارس والروم - أقدركم عليها بعز الإسلام، وقد كنتم قبل ذلك مستضعفين.

أحاط الله بها: قدر عليها وأظهركم عليها.

وقال بعض المفسرين:

وأخرى: أى هناك مغانم أخرى مؤجلة لم تقدروا عليها: فوق مجال قدرتكم وقوتكم، هى مغانم «هوازن» يوم حنين.

أحاط الله بتلك المغانم وقدر عليها، فهى فى قبضة قدرتـه، وسيمكِّن المؤمنين منها ويظهرهم عليها.

وقد كانت مغانم المسلمين من هوازن أعظم من أى غنيمة سبقتها، فإن هوازن قد استاقت يوم حنين كل ما تملك من مال وأنعام وأطعمة..

وجعلت جميع نسائها وأولادها من خلفهم، حتى لا ينهزموا، فلم يغن عنهم ذلك شيئاً، وهزمهم المسلمون وغنموا ٢٢ ألفا من الإبل و ٤٠ ألفا من الشياه، وأربعة آلاف أوقية من الفضة، و ٦ آلاف من السبايا، والعديد من السلاح والمتاع.

﴿ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ ﴾

يقول سيد قطب: وهكذا يربط نصرهم وهزيمة الكفار بسنته الكونية التى لا تتبدل.

هى سنة دائمة لا تتبدل.. ولكنها قد تتأخر إلى أجل، ولأسباب قد تتعلق باستواء المسلمين على طريقهم وباستقامة المسلمين الاستقامة التى يريدها الله لهم. أو تتعلق بتهيئة الجو الذى يولد فيه النصر للمؤمنين والهزيمة للكافرين لتكون له قيمته وأثره. أو لغير هذا. ذلك مما يعلمه الله.. ولكن السنَّة لا تتخلف.

قال قتاده: ولو قاتلكم الذين كفروا: يعنى كفار قريش فى الحديبية.

وقيل: ولو قاتلكم: غطفان وأسد والذين أرادوا نصرة أهل خيبر.

لولوا الأدبار: لكانت الدائرة عليهم.

سنَّة الله: أى هذه هى سُنة الله فى خلقه، ما تقابل الكفر والإيمان فى موطن إلا نصر الله المؤمنين على الكافرين.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾

كفَّ: منع.
أيديهم: أيدى أهل مكة.

بطن مكة: فى بطن مكة ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الحديبية. قاله أنس. والثانى: وادى مكة. قاله: السدى. والثالث: التنعيم. حكاه أبو سليمان الدمشقى. (والتنعيم موضع بمكة فى الحل)، وعلى هذه التفسيرات الثلاث يمكن أن يوجه تفسير الآية على النحو التالى:

١ - روى أنس بن مالك أن ثمانين رجلًا من أهل مكة هبطوا على رسول الله، ﷺ، من جبل التنعيم متسلحين، يريدون غرة النبى ﷺ وأصحابه، فأخذهم سلمًا، فاستحياهم. فأنزل الله هذه الآية. فيكون المراد ببطن مكة: جبل التنعيم.

٢ - وأما صاحب التسهيل فى علوم التنزيل، فقد روى فى سبب نزول هذه الآية قولاً آخر، فقال: أن جماعة من فتيان قريش خرجوا إلى الحديبية ليصيبوا من عسكر رسول الله ﷺ، فبعث إليهم رسول الله ﷺ جماعة من المسلمين فهزموهم، وأسروا منهم قومًا، وساقوهم إلى رسول الله ﷺ فأطلقهم. فكف أيدى الكفار هو: هزيمتهم وأسرهم، وكف أيدى

المؤمنين عن الكفار هو إطلاقهم من الأسر وسلامتهم من القتل، وعلى هذا الرأى يكون المراد ببطن مكة: الحديبية.

٣ - وروى إسحاق عن ابن عباس، رضى الله عنه، أن قريشا بعثوا أربعين رجلاً منهم، أو خمسين، وأمروهم أن يتجهوا إلى عسكر رسول الله، ﷺ، ليصيبوا من أصحابه أحدًا، فأخذوا أخذًا، فأتىَ بهم إلى رسول الله ﷺ، فعفا عنهم، وخلى سبيلهم، وقد كانوا قد رموا عسكر رسول الله ﷺ بالحجارة والنبل، وفى ذلك أنزل المولى قوله: ﴿وهو الذى كَفَّ أيديهم عنكم...﴾ الآية.

ويقول ابن كثير: وفى هذه الآية امتنان من الله تعالى على عباده المؤمنين حين كف أيدى المشركين عنهم، فلم يصل إليهم منهم سوء، وكف أيدى المؤمنين عن المشركين فلم يقاتلوهم عند المسجد الحرام، بل صان الفريقين وأوجد بينهم صلحًا فيه خير للمؤمنين وعاقبة لهم فى الدنيا والآخرة. فيكون المراد ببطن مكة: وادى مكة.

٤ - وبعض المفسرين المحدثين يقول فى كتابه التفسير القرآنى للقرآن عند تفسير هذه الآية: والذى نراه أن هذا إنما كان يوم الفتح حيث دخل النبى ﷺ مكة على رأس جيش من عشرة آلاف مقاتل، وأن قريشًا قد فزعت لهذا واستسلمت من غير قتال طالبة الأمان من رسول الله ﷺ، بعد أن مكن الله له من رقابهم.

فقال لهم رسول الله ﷺ قولته الخالدة: ما تظنون أنى فاعل بكم، فكان جوابهم للنبى عليه الصلاة والسلام هذا الجواب الذليل المستسلم: أخ كريم وابن أخ كريم! فقال: اذهبوا فأنتم الطلقاء..

ثم يقول الأستاذ عبد الكريم الخطيب صاحب كتاب التفسير القرآنى للقرآن يقول بعد أن عرض رأيه هذا:

ولا يعترض على هذا الرأى الذى ذهبنا إليه بأن الآية تحدثت عن أمر وقع فعلاً فى قوله تعـالى: ﴿كف أيديهم عنكم وأيـديكم عنهم..﴾ بلفظ الماضى. ثم يجيب قائلاً:

والجواب عن هذا من وجهين: أولها: أن الإخبار عن المستقبل بالفعل الماضى إشارة إلى تحققه، وأنه إن لم يكن قد وقع، فهو واقع لا شك فيه.

وثانيهما: أنه قد تكون هذه الآية قد نزلت بعد فتح مكة ثم أخذت مكانها من السورة لتكون إلى جانب أحـداث الحديبيـة التى تلقى فيها الرسول ﷺ قوله تعالى: ﴿إنا فتحنا لك فتحًا مبينًا﴾ فهذا الفتح يطوى فى كيانه فتح مكة، وإن كان فتحها لم يقع بعد..

والحق أن رأى الأستاذ الخطيب هذا ليس بالرأى الجديد، فقد سبقه إليه العلامة المـاوردى وقد سجـل ذلك الإمـام القرطبى عنـدما قـال: قال الماوردى: «وفى قوله ﴿من بعد أن أظفركم عليهم﴾ بفتح مكة، وتكون هذه نزلت بعد فتح مكة، وفيها دليل على أن مكة فتحت صلحًا، لقوله عز وجل ﴿كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم﴾..

وبعد أن عرض الإمام القرطبى هذا الرأى قال: قلت: الصحيح أن هذه الآية نزلت فى الحديبية قبل فتح مكة، ثم يقول: وأما فتح مكة فالذى تدل عليه الأخبار أنها فتحت عنوة.

يقول صاحب ظلال القرآن:

كذلك يمن الله عليهم بكف أيدى المشركـين عنهم، وكف أيديهم عن المشركين من بعد ما أظفرهم على من هاجموهم، مشيرًا بذلـك إلى ذلك الحادث الذى أراد أربعون من المشركين أو أكثر أو أقل أن ينالـوا من معسكر المسلمين فأُخِذُوا، وعفا عنهم رسول الله ﷺ.

وهو حادث وقع، يعرفه السامعون، والله يذكره لهم فى هذا الأسلوب ليرد كل حركة وكل حادث وقع لهم إلى تدبيره المباشر، وليوقع فى قلوبهم هذا الإحساس المعين بيد الله سبحانه وهى تـدبر لهم كـل شىء وتقود خطاهم كما تقود خواطرهم، ليسلموا أنفسهم كلها لله بلا تردد ولا تلفت، ويدخلوا بهذا فى السلم كافة بكل مشاعرهم وخواطرهم، موقنين أن الأمر كله لله، وأن الخير فى ما اختاره الله.

فاذا استسلموا له تحقق لهم الخير كله من أيسر طريق، وهو بصير بهم، ظاهرهم وخافيهم، فهو يختار لهم عن علم وعن بصر ولن يضيعهم، ولن يضيع عليهم شيئًا يستحقونه ﴿وكان الله بما تعملون بصيرًا﴾.

﴿ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ ﴾

هم الذين كفروا: أى قريشا منعوكم دخول المسجد الحرام عام الحديبية حين أحرم الرسول عليه الصلاة والسلام مع أصحابه بعمرة.

الهدى: ما يهدى إلى الكعبة، وما يُقَدَّم قربانًا لله حين أداء مناسك الحج أو العمرة. وكان الهدى سبعين بدنة (جملا). وهو منصوب عطفا على الضمير فى صدوكم.

وقال بعض الصحابة: نحرنا مع رسول الله ﷺ عام الحديبية البدنة عن سبعة والبقرة عن سبعة.

معكوفًا: محبوسًا عن أن يباع، وانتصابه على الحال من الهدى، فالهدى محبوس على هذه الغاية وموقوف عليها فلا يتصرف فيه ببيع ولا بغيره.

أن يبلغ محله: أى محل نحره، وذلك: دخول الحرم.. والموضع الذى إذا سار إليه حل نحره..

فمحله: هو مكانه الذى يحل فيه نحره وهو (منى) أو (مكة).

محله (منحره) ومحل الشيء (بالكسر): غايته ومحل (بالفتح): هو المكان الذى يحل فيه الناس.أن تطئوهم: الوطء: الدوس

المراد بالوطء.. الإهلاك. بغير علم: أى غير عـالمين بهم. منهم: من جهتهم.

المعرَّة: المذمة والمكروه والمشقة: (وأصل المعرة مأخوذ من العر وهو الجرب: وذلك أن المشركين سيقولون قد قتلوا أهل دينهم).

ولكن هذا القول ضعيف لأن المشركين لا يعلمون بالمسلمـين الذين أخفوا إيمانهم. وأحسن منه: الذى قال: «منهم: أى من المسلمين الذين يسـرون إيمانهم فهم يتـوجهون بـاللوم للذين قتلوهم وقد خفى عليهم إيمانهم».

تزيَّل: تفرّق: وتميز الكفار من المؤمنين الذين بين أظهـرهم وانفصل هؤلاء المؤمنين والمؤمنات عن المشركين لعذب الله الكافرين منهم بعذاب من عنده، ولكن الله سبحانه حماية للمؤمنين والمؤمنات، ودفعًا لما يلحقهم من مكروه إذا أنزل العذاب بهؤلاء المشركين الذين يخالطون المؤمنين لم ينزل عذابه فى الدنيا بهم وأنظرهم إلى يوم الدين وأمهلهم إلى يوم الحساب.

رحمته: المراد بالرحمة هنا: الإسلام. وقيل: الجنة.

وجواب لولا محذوف: تقديره لأذن الله لكم فى دخول مكة ولسلطكم عليهم وعذبهم على أيديكم، وليدخل: اللام متعلقة بمحذوف تقديره ولكن لم يأذن لكم.

وكف أيديكم: ليدخل الله فى رحمته بذلك من يشـاء من عباده وهم المؤمنون الذين كانوا فى مكة.

وقيل: لم يأذن الله لكم فى قتال المشركين ليسلم بعد الصلح من قضى الله عليه أن يسلم من أهل مكة. (وقد أسلم الكثير منهم وحسن إسلامه ودخلوا فى رحمته أى جنته).

بعد أن بين فيما سلف أن الله كف أيدى المؤمنين عن الكافرين وكف أيدى الكافرين عن المؤمنين... عين هنا، مكان الكف، وهو البيت الحرام الذى صدوا المؤمنين عنه، ومنعوا الهدى..

ثم أخبرهم بأنه لولا أن يقتلوا رجالاً مؤمنين ونساء مؤمنات لا علم لهم بهم فيلزمهم العار والإثم لأذن لهم فى دخول مكة.

وقد كان بمكة قوم من المسلمين مختلطين بالمشركين غير متميزين منهم ولا معروفى الأماكن؛ لأنهم كتموا إيمانهم خوفًا من أعداء الإسلام، ولو دارت رحى الحرب لأصاب ضررها المسلم، والكافر فربما يقتل المسلم أخاه المسلم الذى يكتم إيمانه وهو يظن أنه قتل كافرًا، وفى ذلك ما فيه من المشقة على المسلمين.

وأن أعداء الدين يتخذون من ذلك وسيلة للطعن والتشهير بأن المسلمين يقتل بعضهم بعضًا.

والله سبحانه وتعالى كف الأيدى عن القتال فى فتح مكة لأنه يعلم أن بعض أهلها المشركين سيهتدون ويسلمون.

وكانت حكمة الله شاملة فى عدم دخول المؤمنين مكة يوم الحديبية دخول الفاتح القاهر بعد أن كانت الحرب قاب قوسين أو أدنى.

لو تزيلوا وتميز الكفار من المؤمنين الذين بين أظهرهم لسلطناكم عليهم فقتلتموهم قتلاً ذريعًا.

يقول سيد قطب: لقد كان هناك بعض المستضعفين من المسلمين فى مكة

لم يهاجروا، ولم يعلنوا إسلامهم تقية فى وسط المشركين، ولو دارت الحرب وهاجم المسلمون مكة وهم لا يعرفون أشخاصها فربما وطئوهم وداسوهم وقتلوهم، فيقال: إن المسلمين يقتلون المسلمين.

ثم هناك حكمة أخرى وهى أن الله يعلم أن من بين الكافرين الذين صدوهم عن المسجد الحرام من قسمت له الهداية، ومن قدر له الله الدخول فى رحمته، ولو تميز هؤلاء وهؤلاء لأذن الله للمسلمين فى القتال ولعذب الكافرين العذاب الأليم.

﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ ﴾

إذ جعل: إذ ظرف متعلق بفعل تقديره: أذكر وقت أن جعل.. وقيل متعلق بعذبنا: أى لعذبناهم حين جعلوا فى قلوبهم الحمية.

الحمية: الأنفة. (ثوران قوة الغضب) والاستكبار والاستنكاف جعلوها: ثابتة راسخة فى قلوبهم.

والحمية: الغيرة والأنفة وهى محمودة إذا كانت فى جانب الحق والعدل والإحسان، ومذمومة إذا كانت فى جانب الهوى والسفه والضلال.

وحمية الجاهلية: حمية استعلاء وتطاول بغير حق لا يضبطها عقل ولا تقودها حكمة.

وحمية الجاهلية حمية فى غير موضعها منشؤها الجهل، فهى ثورة غضبية يثيرها الكبرياء الكاذب، والتشدد والتعنت.

وذلك حين أبوا أن يكتبوا: بسم الله الرحمن الرحيم وحين أبوا أن يكتبوا: هذا ما قضى عليه محمد رسول الله.

وحين امتنعوا عن الدخول فى الإسلام.

وأنفتهم من الإقرار للرسول بالرسالة: ولقد أثارت هذه الحمية التى أبداها سهيل (سفير الصلح) فى شروط الصلح أثارت غضب المسلمين حتى لقد همَّ المسلمون أن يبطشوا به وبمن معه، فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين فعصمهم من الفتنة فحلموا..

سكينته: التثبت والطمأنينة وثبتهم على الرضا والتسليم ولم يدخل فى قلوبهم ما أدخل قلوب أولئك من الحمية.

وألزمهم: اختار لهم.. أى للمسلمين. وخصهم. كلمة التقوى:

١ - لا إله إلا الله؛ «كلمة التوحيد». قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فمن قال لا إله إلا الله فقد عصم منى ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله عز وجل».

٢ - لا إله إلا الله محمد رسول الله. قال ابن عباس: شهادة ألا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله هى رأس كل تقوى. وإضافة الكلمة إلى التقوى: أنها سبب التقوى وأساسها، وهى التى يتقى بها من الشرك.

٣ - وقال مجاهد: هى لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير.

٤ - وقال الزهرى: هى: بسم الله الرحمن الرحيم: يعنى أن المشركين لم يقروا بها، فخص الله بها المؤمنين.

وكانوا أحق بها: أولى وأجدر من الكفار لأنهم (أى المؤمنين) كانوا أعلم بالله لقول الله: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾

وأهلها: المستأهلين لها. الذين حملوا كلمة الإخلاص وكلمة التوحيد وكلمة الله العليا.. حملوا الشهادة وباعوا أنفسهم رخيصة فى سبيل نشرها

وإعلانها ورعوها حق رعايتها فاستحقوا من الله جميل المثوبة وجليل الأجر.

أهّلهم الله سبحانه لدينه وصحبة رسوله ﷺ.

وكان الله بكل شيء عليماً: عليم بمن يستحق الخير فيسوقه إليه، فهو يعلم أهل كلمة التقوى والمستحقين لها فيعطي كل ذى حق حقه.

يقول سيد قطب فى ظلال القرآن:

«وتمضى - الآيات - فى وصف الذين كفروا، وصف نفوسهم من الداخل، بعد تسجيل صفتهم وعملهم من الظاهر فتقول ﴿إذ جعل الذين كفروا فى قلوبهم الحمية﴾ حمية، لا لعقيدة.. ولا لمنهج، إنما هى حمية الكبر والفخر والبطر والتعنت..

الحمية التى جعلتهم يقفون فى وجه رسول الله ﷺ ومن معه يمنعونهم من المسجد الحرام، ويحبسون الهدى الذى ساقوه أن يبلغ محله الذى ينحر فيه، مخالفين بذلك عن كل عرف وعن كل عقيدة كى لا تقول العرب: إنه دخلها عليهم عنوة.

ففى سبيل هذه النعرة الجاهلية يرتكبون هذه الكبيرة الكريهة فى كل دين.

وينتهكون حرمة البيت الحرام الذى يعيشون على حساب قداسته وينتهكون حرمة الأشهر الحرم التى لم تنتهك فى جاهلية ولا إسلام:

هى الحمية التى تبدت فى رد سهيل بن عمرو لاسم الرحمن الرحيم، ولصفة رسول الله ﷺ فى أثناء الكتابة.. وهى كلها تنبع من تلك الجاهلية المتعنتة.

أمـا المؤمنون فقـد حماهم من هـذه الجاهليـة وأحل محلهـا السكينة والتقوى.

ومن ثمَّ كان المؤمنون أحق بكلمة التقوى، وكانوا أهلها.

وهذا ثناء آخر من ربهم عليهم، إلى جانب الامتنان عليهم بما أنزل على قلوبهم من سكينة وما أودع فيها من تقوى، فهم قد استحقوها فى ميزان الله، وبشهادته،

وهو تكريم بعد تكريم، صادر عن علم وتقدير ﴿وكان الله بكل شىء عليمًا﴾.

﴿ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ
لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ
وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ٢٧
هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِ
وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ٢٨ ﴾

قال الخطيب فى تفسيره: ﴿لقد صدق..﴾ هذا رد من الله سبحانه على ما وقع فى نفوس بعض المسلمين من مشاعر القلق، والضيق والاتهام، لما فاتهم من دخول المسجد الحرام يوم الحديبية، وقد جاءوا إليه وهم على يقين من أنهم داخلوه تصديقًا للرؤيا التى رآها النبى ﷺ وأخبرهم بها.

فقوله تعالى لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق: تصديق لرؤيا الرسول الكريم، وأنها رؤيا من الله وأنها الصدق المطلق والواقع المحقق، وإن كان تأويلها لم يجىء بعد..

صدق الله رسوله ﷺ: أى صدقه فى رؤياه ولم يكذبه. الرؤيا: هى رؤيا منام وحلم.

ورؤيا الأنبياء حق. والرؤيا أحد وجوه الوحى إلى الأنبياء.

بالحق: بالصدق، أى صدقهُ الرؤيا ملتبسة بالحق فلم تكن من أضغاث الأحلام بل حقيقية.

لتدخلن: اللام واقعة فى جواب قسم مقدر وتقديره، والله (فاللام موطئة للقسم) والله لتدخلن فى العام القادم

آمنين: من العدو. وانتصب على الحال من فاعل لتدخلن.

محلّقين رءوسكم: حلق شعر الرأس: إزالته.

ومقصّرين: التقصير إزالة بعض شعر الرأس.

لا تخافون: فى محل نصب على الحال. وفيه تأكيد لآمنين.

فعلم ما لم تعلموا: علم مالم تعلموا من المصلحة فى الصلح.

لما فى دخولكم فى عام الحديبية من الضرر على المستضعفين من المؤمنين.

وعلم ما لم تعلموا من الحكمة والصواب فى تأخير دخولكم مكة إلى العام القادم.

(ولقد كان الله قادرًا على أن يحقق للرسول ﷺ رؤياه فى عامه هذا فيفتح له السبيل إلى الطواف وزيارة البيت الحرام، ولا يعرضه هو وأصحابه إلى ما احتملوه من جهد وعناء، لكنه سبحانه وتعالى أجل تحقيق الرؤيا لما سبق فى علمه من أن فى التأجيل حكمًا بالغة ونعمًا جليلة.. لقد كان هذا التأجيل امتحانًا للقلوب، وإظهارًا للمنافقين الذين تزلزلت عقائدهم وارتابت قلوبهم.. هؤلاء الذين شهدوا الحديبية ولم يبايعوا بيعة الرضوان.. كعمرو بن عوف وابن قيس الأنصارى فقد اختبأ وراء بعير حتى فرغ الناس من البيعة، وعبد الله بن أُبَىّ اعتل بالمرض ولم يبايع).

فجعل من دون ذلك: أى من دون دخولكم مكة: كما أرى رسوله.

فتحًا قريبًا: هو صلح الحديبية (وهو قول أكثر المفسرين).

قال الزهرى: لا فتح فى الإسلام كان أعظم من صلح الحديبية، ولقد

دخل فى تلك السنتين فى الإسلام مثل من كان قد دخل فيه قبل ذلك بل، أكثر فإن المسلمين كانوا فى سنة ست (وهى سنة الحديبية) ١,٤٠٠ وكانوا فى سنة ثمان ١٠,٠٠٠.

وقيل هو: فتح خيبر.

هو الذى أرسل رسوله:

بالهدى: بالقرآن أو بالبيان الواضح، (أى إرسالاً متلبسًا بالهدى).

ودين الحق: دين الإسلام.

ويحتمل أن يكون الحق اسم الله تعالى فكأنه قال بالهدى ودين الله.

ليظهره: ليعلى الإسلام.

على الدين كله: على الأديان المختلفة، فينسخ الأديان ويظهر دين الإسلام على كل الأديان ويبطل به الملل كلها حتى لا يكون دين سواه.

وكفى بالله شهيدًا: شهد الله على نفسه أنه سيظهر دينه. والباء زائدة. والمعنى كفى الله شهيدًا على هذا الإظهار الذى وعد المسلمين به وعلى نبوة نبيه، ﷺ.

قال الحسن: شهد لك على نفسه أنه سيظهر دينك على الدين كله.

قال ابن جرير: وهذا إعلام من الله تعالى نبيه، ﷺ، والذين كرهوا الصلح يوم الحديبية - أن الله فاتح عليهم مكة وغيرها من البلدان، مسليهم بذلك عما نالهم من الكآبة والحزن بانصرافهم عن مكة قبل دخولها، وقبل طوافهم بالبيت.

رأى ﷺ فى المنام، وهو بالمدينة، قبل أن يخرج إلى الحديبية أنه يدخل المسجد الحرام، هو وأصحابه آمنين، منهم من يحلق رأسه ومنهم من يقصِّر..

فأخبر بذلك أصحابه ففرحوا.. وحسبوا أنهم داخلون مكة عامهم هذا..

فلما انصرفوا من الحديبية، ولم يدخلوا.. شق ذلك عليهم.. وقال المنافقون:

أين الرؤيا.. أين رؤياه التى رآها!!

فأنزل الله سبحانه هذه الآية.. مؤكدًا لهم صدق هذه الرؤيا، وينبئهم أنها منه، وأنها لابد واقعة.. وأن وراءها ما هو أكبر من دخول المسجد الحرام..

لقد صدق الله رسوله محمدًا ﷺ رؤياه التى أراها إياه أنه يدخل هو وأصحابه البيت الحرام آمنين، لا يخافون أهل الشرك محلقًا بعضهم ومقصرًا بعضهم الآخر.

فعلم - جل ثناؤه - ما لم تعلموا.

وذلك هو علمه تعالى بما بمكة من الرجال والنساء المؤمنين الذين لم يعلمهم المؤمنون، ولو دخلوها هذا العام لداسوهم ووطئوهم بالخيل والرَّجْل، فأصابتهم منهم معرة بغير علم، فردهم الله عن مكة من أجل ذلك.

فجعل من دون دخولهم المسجد.. فتحًا قريبًا هو صلح الحديبية (أو فتح خيبر). إن شاء الله:

يقول سيد قطب: إن الله سبحانه وتعالى يؤدب المؤمنين بأدب الإيمان وهو يقول لهم لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله».

فالدخول واقع حتمًا، لأن الله أخبر به.

ولكن المشيئة يجب أن تظل فى نفوس المسلمين فى صورتها الطليقة، لا يقيدها شىء، حتى تستقر هذه الحقيقة فى القلوب، وَوَعْدُ الله لا يُخْلَف،

ولكن تعلُّق المشيئة به أبدًا طليق، إنه أدب يلقيه الله فى قلوب المؤمنين ليستقر منهم فى أعماق الضمير والشعور.

ويقول الدكتور الكومى فى كتابه تفسير سوة الفتح: فى قوله تعالى ﴿إن شاء الله﴾، ما يؤذن بأن الرؤيا موكول تحقيقها لمشيئة الله تعالى، يحققها إذا شاء ومتى شاء، فليس تحقيقها بقدرة المؤمنين وتدبيرهم، ولا تأجيلها برغبة قريش وإرادتهم وإنما الأمر كله لله الذى لارادَّ لقضائه، وفيه تعليم لعباده، وإرشاد لهم إلى ما ينبغى أن يقولوه فى حكمهم على أفعالهم المستقبلة، وتوجيه لهم إلى أن يفوضوا الأمر كله لله كما قال الله ﴿ولا تقولن لشىء إنى فاعل ذلك غدًا إلا أن يشاء الله﴾.

عمرة القضاء

وقد تحققت هذه الرؤيا بعد عام واحد من صلح الحديبية (حين حان الموعد الذى نص عليه الصلح)..

ثم بعد عامين اثنين من صلح الحديبية عندما فتح الله عليهم مكة..

تحققت الرؤيا بعد عام واحد من صلح الحديبية، فى ذى القعدة من السنة السابعة للهجرة - أى فى العام التالى من صلح الحديبية - خرج رسول الله ﷺ إلى مكة معتمرا هو وأهل الحديبية.

وأحرم ﷺ من ذى الحليفة.. وساق معه الهدى - كما ساق معه فى العام قبله -

وسار ﷺ إلى مكة والسيوف مغمدة فى قربها وأصحابه يلبُّون..

ودخل رسول الله ﷺ مكة.. وبين يديه أصحابه يلبون، وهو راكب ناقته القصواء التى كان راكبها يوم الحديبية، وعبد الله بن رواحة الأنصارى آخذ بزمام الناقة يقودها.

وهكذا صدقت رؤيا رسول الله ﷺ، وتحقق وعد الله. وأقام المسلمون بمكة ثلاثة أيام بعد أن أدوا عمرتهم محلقين ومقصرين كما رأى النبى الأمين.

ثم كان الفتح فى العام الذى يليه، وظهر دين الله فى مكة.

ثم ظهر فى الجزيرة كلها بعد ذلك.

ثم تحقق وعد الله فظهر دينه الإسلام لا فى الجزيرة وحدها بل فى الأرض كلها قبل مضى نصف قرن من الزمان.

وما يزال دين الإسلام دين الله الحق ظاهرًا على الدين كله، فهو الدين القوى بذاته الزاحف بلا سيف ولا مدفع من أهله.

وما من صاحب دين - غير الإسلام - ينظر فى الإسلام نظرة مجردة من التعصب والهوى حتى يقر باستقامة هذا الدين وقوته وقدرته على قيادة البشرية.

ولعل أهل هذا الدين هم وحدهم الذين لا يدركون هذه الحقيقة اليوم.

فغير أهله يدركونها ويخشونها ويحسبون لها فى سياستهم كل حساب!!

ويقول الدكتور الكومى: (ومن العنت فى الرأى والعدول عن جادة الإنصاف أن يخلط الباحث بين الإسلام ومسلمى هذا العصر، وأن يرسم صورته من حالهم ويرتهن مآله بمآلهم.

ولو أن المسلمين عرفوا الله حق معرفته واتقوه حق تقاته، وساروا كما رسم الدين رحماء متوادين، أخوة متعاونين متجهين إلى غاية واحدة،

هى إعلاء كلمة الله والاعتصام بحبل الله لحقق لهم ما وعد به عباده الصالحين

ولكنهم نسوا الله فأنساهم أنفسهم وأوهنوا دينه فأوهن قوتهم ﴿وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾.

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ
رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ
فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ
كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ
ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟
ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾ ﴾

محمد رسول الله: ما أصدقها شهادة من الله برسالته عليه السلام. فى وقت عزَّ فيه على قريش أن تعترف بهذه الرسالة. وكبر عليها أن يكتب فى الصلح «محمد رسول الله» وذلك عندما أمر الرسول عليه الصلاة والسلام عليًا أن يكتب فى شروط الصلح: اكتب هذا ما قضى عليه محمد رسول الله. فقال سهيل: لو كنا نعرف أنك رسول الله لم نقاتلك ولكن اكتب اسمك واسم أبيك..

وما شهد الله لرسول من رسله بالرسالة فى القرآن إلا لرسوله محمد ﷺ ﴿يس والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين﴾..

وقد سمى الله كل نبى فى القرآن باسمه مجردًا عن وصف الرسالة، إلا محمدًا رسوله ﷺ فقد تفضل الله فوصفه بوصف النبوة والرسالة فى مواطن كثيرة واكتفى بها عن ذكر اسمه الكريم.

نادى عز وجل الأنبياء بأسمائهم: ﴿يا نوح اهبط بسلام﴾ ﴿كلم الله موسى تكليمًا﴾ ﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾ ﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل﴾.

أما محمد ﷺ فقد ذكر اسمه مقرونًا بوصف الرسالة أو ما فى معناها ﴿ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين﴾ ﴿محمد رسول الله﴾ ﴿وما محمد إلا رسول﴾ وأحيانًا يكتفى عن ذكر اسمه بإطلاق وصف النبوة أو الرسالة عليه: ﴿إن الله وملائكته يصلون على النبى﴾ ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه﴾ ﴿واعلموا أن فيكم رسول الله﴾ «يقول الأستاذ الخطيب عند تفسير هذه الآية التى تختم بها سورة الفتح:

«.. وبهذا الفتح الذى وعد الله به المؤمنين تقوم دولة الإسلام ويأخذ المجتمع الإسلامى مكانه فى الحياة. ويرى الناس وجه الإسلام فى هذا المجتمع:

والصفة التى تغلب على هذا المجتمع ويعرف بها فى الناس أنه مجتمع شديد الغلظة على الكفار الذين يحادون الله ورسوله.. فلا يكون بين هذا المجتمع وبين أولئك ولاء أو مودة.

هذه حال المسلمين مع أعداء الله.. وهم فيما بينهم رحماء تفيض قلوبهم رحمة ومودة وحنانًا هذا ما تنطوى عليه صدورهم.

أما ما يراه الناس من ظاهر أمرهم فهو اجتماعهم فى الصلاة، وتولية وجوههم جميعًا لله يركعون معا ويسجدون معًا يريدون بذلك رضا الله وفضله وإحسانه.

فإذا لم يرهم الرائى فى الصلاة.. رأى منهم أثر هذه الصلاة، وما يترك

السجود من نور على وجوههم وعلى جباههم (ومن آثار ذلك هى سمة المسلم المصلى وهى للشارة التى تشير إليه).

فالصلاة هى شعار المسلم وأن من لا يؤديها لا تظهر عليه سمة الإسلام..».

وفى ختام سورة الفتح صورة عجيبة يرسمها القرآن الكريم بأسلوبه البديع لصحابة رسول الله ﷺ:

فلقطة تصور حالهم مع الكفار ومع إخوانهم فى العقيدة: ﴿أشداء على الكفار رحماء بينهم﴾

ولقطة تصور هيئتهم فى عبادتهم: ﴿تراهم ركَّعًا سجَّدًا..﴾

ولقطة تصور قلوبهم وما يشغلها: ﴿يبتغون فضلًا من الله ورضوانًا..﴾

ولقطة تصور أثر العبادة فى سحنتهم وسماتهم: ﴿سيماهم فى وجوههم من أثر السجود﴾

ولقطات متتابعة تصورهم كما هم فى الإنجيل..

والمؤمنون لهم حالات شتى..

ولكن اللقطات تتناول الحالات الثابتة فى حياتهم وتبرز الخطوط العريضة فى هذه الحياة.

اللقطة الأولى:

أشداء على الكفار رحماء بينهم. أشداء على الكفار وفيهم آباؤهم وإخوتهم وذوو قرابتهم ولكنهم قطعوا هذه الوشائج كلها. رحماء بينهم، وهم فقط إخوة فى الدين، فهى الشدة لله والرحمة لله وهى الحمية للعقيدة..

والسماحة للعقيدة. هم يقيمون عواطفهم وروابطهم وسلوكهم على أساس عقيدتهم وحدها. يشتدون على أعدائهم فيها، ويلينون لإخوتهم فيها.

﴿تراهم ركّعًا سجّدًا﴾:

والتعبير يوحى كأنما هذه هيئتهم الدائمة التى يراها الرائى حيثما رآهم، ذلك أن هيئة الركوع والسجود تمثل حالة العبادة وهى الحالة الأصيلة لهم فى حقيقة نفوسهم.

أو: ﴿تراهم﴾:

أيها الرائى أو أيها السامع ركعًا سجدًا يبتغون فضلاً من الله ورضوانًا لتمييز ركوعهم وسجودهم عن ركوع الكفار وسجودهم وركوع المرائى وسجوده فإنه لا يبتغى به ذلك.

يبتغون فضلاً من الله ورضوانًا: هذه هى صور مشاعرهم الدائمة الثابتة. كل ما يشغل بالهم وكل ما تتطلع إليه أشواقهم هو فضل الله ورضوانه. ولا شىء وراء الفضل والرضوان يتطلعون إليه.

وهذه اللقطة الرابعة: تثبت أثر العبادة فى ملامحهم.

﴿سيماهم فى وجوههم من أثر السجود﴾:

سيماهم فى وجوههم من الوضاءة والإشراق والصفاء والشفافية، وليست هذه السيما هى النكتة المعروفة فى الوجه كما يتبادر إلى الذهن عند سماع قوله تعالى ﴿من أثر السجود﴾. فالمقصود بأثر السجود هو أثر العبادة واختار لفظ السجود لأنه يمثل حالة الخشوع والخضوع والعبودية لله فى أكمل صورها. فهو أثر هذا الخشوع. أثره فى ملامح الوجه حتى

تتوارى الكبرياء والخيلاء ويحل مكانها التواضع النبيل، والشفافية الصافية والوضاءة الهادئة، والذبول الخفيف الذى يزيد وجه المؤمن صباحة ووضاءة.

وقال الدكتور الكومى فى كتابه عند تفسير قوله تعالى ﴿سيماهم فى وجوههم﴾ قال تحت عنوان «أثر الإخلاص»: «ولمحافظتهم على الصلاة فى أوقاتها.. ولكثرة ما صلوا بالليل والناس نيام جعلت لهم تلك الصلاة طابعًا خاصًّا فى وجوههم وهيبة وحياء مع وضاءة واستنارة فى الوجه من أثر رضا الله، وربما صحب ذلك شيء من الشحوب يزيد سمتهم حسنًا.

ومن الناس من يحسب أن هذه السيما التى أراد الله هى سفنة فى الجبين تشبه أثر الكى و «ثفنات» البعير ولو أرادها الله على هذه الصورة لقال سيماهم على جباههم»

ثم قال: السيما التى أرادها الله ليست أثرًا ماديًّا يصاب به الجلد، ولكنها: وقار وتواضع ورقة من خشيه الله».

وقال الفخر الرازى: فيه وجهان: أحدهما أن ذلك يوم القيامة كما قال الله تعالى ﴿يوم تبيض وجوه﴾، وثانيهما أن ذلك فى الدنيا.

﴿سيماهم فى وجوههم﴾: سيماء الإسلام وسمته وخشوعه. والسيماء من (السومة) بالضم وهى العلامة.

﴿فهم﴾: غلاظ على من خالف دينهم.. رحماء فيما بينهم. عابدون لله عاملون مخلصون. يرجون بعملهم ثواب الله. لهم علامة يعرفون بها. إن الإنجيل ضرب بشأنهم المثل فقال: سيخرج قوم ينبتون نبات الزرع، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر.

وهنا عند قوله تعالى: ﴿ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الإنجيل﴾، وهنا وقفة نقول:

إن شئت قلت المعنى:

ذلك مثلهم فى التوراة وفى الإنجيل أيضًا كمثلهم فى القرآن فيكون الوقف على الإنجيل.

وإن شئت قلت:

تمام الكلام: ذلك مثلهم فى التوراة ثم ابتدأ فقال: ومثلهم فى الإنجيل..

كما قال ابن عباس: هما مثلان: أحدهما فى التوراة والآخر فى الإنجيل فيوقف على هذا على التوراة.

وقال مجاهد: هو مثل واحد فيوقف على الإنجيل: ويبتدئ كزرع.. أخرج شطأه وشطأه: فراخه وأولاده (ما خرج من الزرع وتفرع فى جانبيه)

فآزره: قواه وأعانه وشده: أى قوَّى الشطأ الزرعَ. وقيل العكس.

فاستوى على سوقه: على عوده الذى يقوم عليه فيكون ساقا له.

يعجب الزراع: أى يعجب هذا الزرع زُرَّاعَه، لقوتِه وحسن منظره.

فالزرع محمد والشطء أصحابه.. كانوا قليلاً فكثروا، وضعفاء فقووا، فهذا مثل ضربه الله تعالى لأصحاب النبى ﷺ يعنى أنهم يكونون قليلاً ثم يكثرون.

والكلام يتم عند قوله: يعجب الزراع.

وليغيظ: اللام للتعليل: أى كثرهم الله وقواهم ليكونوا غيظًا للكافرين.

وهذه الصور الوضيئه ليست مستحدثة إنما هى ثابتة لهم فى لوحة القدر، ومن ثمَّ فهى قديمة جاء ذكرها فى التوراة: ﴿ذلك مثلهم فى التوراة﴾.

ذلك: أى ما تقدم من هذه الصفات مثلهم وصفتهم التى عرّفهم الله بها فى كتاب موسى.

ومثلهم فى الإنجيل: وصفتهم فى بشارته بمحمد ومن معه أنهم:

كزرع أخرج شطأه: فهو زرع نام قوى، يخرج فرخه من قوته وخصوبته، لكن هذا الفرخ لا يضعف العود بل يشده.

فآزره أو: أن العود آزر فرخه فشده.
فاستغلظ: الزرع وضخمت ساقه وامتلأت.
فاستوى على سوقه: لا معوجًا ومحنيًا ولكن مستقيمًا قويًا سويًا.

هذه هى صورته فى ذاته. فأما وقعه فى نفوس أهل الخبرة فى الزرع العارفين بالنامى منه والذابل، المثمر منه والبائر، فهو وقع البهجة والإعجاب ﴿يعجب الزراع﴾

(وفى قراءة يعجب الزارع وهو رسول الله ﷺ. صاحب هذا الزرع النامى)

وأما وقعه فى نفوس الكفار فعلى العكس فهو وقع الغيظ والكمد: ﴿ليغيظ بهم الكفار﴾ وتعمد اغاظة الكفار يوحى بأن هذه الزرعة هى زرعة الله، أو زرعة رسول الله ﷺ، وأنهم ستار للقدرة وأداة لإغاظة أعداء الله.

قال الزمخشرى: هذا مثل ضربه الله لبدء أمر الإسلام وترقيه فى الزيادة إلى أز قوى واستحكم، لأن النبى ﷺ قام وحده ثم قواه الله بمن آمن معه، كما يقوى الطاقة الأولى من الزرع ما يحتف بها مما يتولد منها حتى يعجب الزارع.

وهذا ما قاله البغوى: من أن (الزرع) محمد ﷺ و(الشطء) أصحابه المؤمنون، فجعلا التمثيل للنبى ﷺ وأمته.

أما «القاضى: فجعله مثالا للصحابة فقط.

وعبارته: وهو مثل ضربه الله تعالى للصحابة. قلوا فى بدء الإسلام ثم كثروا واستحكموا فترقى أمرهم بحيث، عجب الناس.

وهذا المثل كذلك ليس مستحدثا،

فهو ثابت فى صفحة القدر.

ومن ثم ورد ذكره قبل أن يجىء محمد ومن معه إلى هذه الأرض.

ثابت فى الإنجيل فى بشارته بمحمد ومن معه حين يجيئون..

ويستطيع الباحث فى التوراة والإنجيل بوصفهما الحالى، وبعد ما نالها من تغيير وتبديل، يستطيع أن يستخرج منهما ما يؤيد ما أشار إليه القرآن، وما تحدث به عن صفات أصحاب رسول الله ﷺ:

فى انجيل مرقس، الإصحاح الرابع الآية ٣٠:

عندما تحدث عن الأمة الآتية، والمملكة الآتية - التى رمز إليها بملكوت الله قال:

مثل ملكوت الله كمثل حبة خردل متى زرعت فى الأرض فهى أصغر جميع البذور التى على وجه الأرض.

ولكن متى زرعت تطلع، وتكبر وتصير أكبر جميع البقول.

وتضع أغصانا كثيرة كبيرة حتى تستطيع طيور السماء أن تأوى تحت ظلها».

وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة، وأجرًا عظيمًا..

أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار..

حملوا عبء الدعوة.. ونشروا كلمة الله.. كلمة التوحيد والإخلاص وأبادوا الشرك وبددوا ظلماته.. ونشروا النور فى الأرجاء وجاهدوا فى سبيل ذلك بأموالهم وأنفسهم.

أولئك هم المؤمنون حقًّا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما.

منهم: ليس منهم ذلك الذى اختبأ وراء بعيره.. عند بيعة الرضوان.

ولا الذى تعلل بالمرض ولم يبايع فحرم من رضا الله. و «من» هاهنا للتبعيض أخرجت:

هؤلاء الذين لم يبايعوا.. أخرجتهم من المغفرة وحرمتهم الأجر، وأبعدتهم عن شرف الاتصاف بهذه الأوصاف التى كرَّم الله بها صحابة رسوله المؤمنين الخلص فى إيمانهم الذين باعوا أنفسهم فى سبيل الله، فاشتراها الله منهم بالجنة وجليل الثواب، وأفاء عليهم من غفرانه وأفاض عليهم رضاه ورضوانه.

كلمات... ومعانى قرآنية

الحق

من معانى الحق:

الله:

﴿ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن﴾
(سورة المؤمنون: آية ٧١)

والقرآن:

﴿بل كذبوا بالحق لما جاءهم﴾
أى: بالقرآن.

والإسلام:

﴿وقل جاء الحق وزهق الباطل﴾
﴿ليحق الحق﴾
﴿إنك على الحق المبين﴾

والعدل:

﴿يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق﴾

أى: حسابهم العدل.

﴿ويعلمون أن الله هو الحق المبين﴾

أى: العدل المبين.

﴿ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق﴾.

أى: بالعدل.

﴿واحكم بيننا بالحق ولا تشطط﴾.

بالحق أى: بالعدل.

﴿ويوم يعرض الذين كفروا على النار أليس هذا بالحق﴾

أى: أليس هذا العذاب بالعدل.

والتوحيد:

﴿فعلموا أن الحق لله﴾ يعنى: التوحيد. ومنه ﴿بل جاء بالحق وصدق المرسلين﴾ أى: بالتوحيد.

والصدق:

﴿ويستنبئونك أحق هو، قل إى وربى﴾ أى: لصدق.

والمال:

﴿وليملل الذى عليه الحق﴾ أى: المال.

﴿فإن كان الذى عليه الحق﴾ أى: المال.

والحظ والنصيب:

﴿والذين فى أموالهم حق معلوم﴾ أى حظ ونصيب.

والحاجة:

﴿قالوا لقد علمت مالنا فى بناتك من حق﴾ أى من حاجة.

والحق بعينه الذى ليس بباطل:

﴿ذلك بأن الله هو الحق﴾ وغيره من الآلهة باطل.

﴿ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق﴾ وغيره باطل.

والحكمة والإتقان:

﴿وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق﴾.

أى: بالحكمة والتقدير والإتقان لا على وجه الباطل والعبث.

والوقوع:

﴿وإذا قيل إن وعد الله حق﴾ أى: واقع.

الله

الله - وحده - هو الواحد الأحد.

ولا يوجد شيء - سوى المولى سبحانه - إلا وله ما يقابله.

فالمزاوجة فى كل شىء.. ﴿وخلقناكم أزواجًا﴾.. من ذكر وأنثى فى دنيا الحيوان.. والنبات.

وإذا تجاوزنا عالم الأشياء التى تولد وتتوالد بالزواج وجدنا هذه المزاوجة قائمة فى عالم المعانى: مثل: الحق.. والباطل.. والإيمان.. والكفر.. والخير.. والشر.. والسعادة.. والشقاء..

﴿ومن كل شىء خلقنا زوجين﴾ أى: متزاوجًا: أن الشىء الواحد ليس فى حقيقته شيئًا واحدًا.. وإنما شيئان اجتمع بعضهما إلى بعض فكان منهما هذا الشىء ولا واحد إلا الخالق وحده.

حتى الخلية الواحدة تنقسم إلى خليتين، وكل خلية منهما تنقسم إلى خليتين.. وهكذا.

الزوج

قال فى «تاج العروس من جواهر القاموس» للزبيدى:

الأصل فى الزوج: الصنف والنوع من كل شىء. وكل شيئين مقترنين: شكلين كانا، أو نقيضين فهما زوجان وكل واحد منهما زوج.

قال الزجاج فى قوله تعالى: ﴿احشروا الذين ظلموا وأزواجهم﴾ أى أشباههم ونظراءهم وضرباءهم. وتقول عندى من هذا أزواج أى أمثال. وكذلك زوجان من الخفاف أى كل واحد نظير صاحبه.

وكذلك الزوج: المرأة، والزوج: المرء قد تناسبا وتشابها بعقد النكاح.

وقوله تعالى: ﴿أو يزوجهم ذكرانًا وإناثًا﴾ أى يقرنهم وكل شيئين اقترن أحدهما بالآخر فهما زوجان.

وقيل: أراد بالتزويج: التصنيف والزوج الصنف والذكر صنف، والأنثى صنف.

والزوج خلاف الفرد، يقال زوج أو فرد كما يقال شفع أو وتر.

وقوله تعالى: ﴿وآخر من شكله أزواج﴾ قيل معناه: ألوان وأنواع من العذاب.

ويقال للاثنين: هما: زوجان، وهما: زوج.

وقيل: الزوج: الفرد الذى له قرين.

والزوج: الاثنان.

وعنده زوجا نعال: وزوجا حمام: يعنى ذكرين أو اثنين وقيل: يعنى ذكرا وأنثى.

ولا يقال: زوج حمام: لأن الزوج هنا هو الفرد: وقد أولعت به العامة.

وقال أبو بكر: العامة تخطىء فتظن أن الزوج اثنان وليس ذلك من مذاهب العرب.

إذ كانوا لا يتكلمون بالزوج موحدا فى مثل قولهم: زوج حمام.

ولكنهم يثنونه فيقولون عندى زوجان من الحمام يعنون ذكرًا وأنثى.

وعندى زوجان من الخفاف يعنون: اليمين والشمال.

ويوقعون الزوجين على الجنسين المختلفين نحو الأسود والأبيض والحلو والحامض.

وقال ابن شميل: الزوج: اثنان كل اثنين: زوج: يقال واشتريت زوجين من خفاف: أى أربعة.

والزوج: عند النحويين: الفرد.

ويقال للرجل والمرأة: الزوجان: أى: الفردان.

قال الله تعالى ﴿ثمانية أزواج﴾ أى: ثمانية أفراد.

وقالوا: هذا هو الصواب.

والأصل فى الزوج الصنف والنوع من كل شىء وكل شيئين. الخ.

وفى المحكم: الرجل زوج المرأة: وهى: زوجه وزوجته ﴿اسكن أنت وزوجك الجنة﴾.

أهل الحجاز: يضعون الزوج للمذكر والمؤنث وضعًا واحدًا: تقول المرأة هذا زوجى ويقول الرجل: هذه زوجى ﴿وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج﴾ أى امرأة مكان امرأة

وفى المصباح: الرجل زوج المرأة، وهى زوجة أيضًا. هـذه هى اللغة العالية وجاء بها القرآن والجمع منها أزواج».

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات.

الفهـرس

الصفحة

بين يدى السورة ٥

رؤيا رسول الله ٥

خروج الرسول والصحابة لأداء العمرة ٥

موقف قريش ٦

سفراء قريش ٦

بيعة الرضوان ٧

صلح الحديبية وشروطه ٨

موقف الصحابة من الصلح ٨

التحلل من العمرة ٩

نزول سورة الفتح ١٠

تفسير سورة الفتح ١١

تعيين الفتح ١٢

ثمرات الفتح على الرسول ﷺ ١٣

بين الفتح والمغفرة ١٥

عصمة الأنبياء ١٦

إتمام النعمة ١٩

الهداية إلى الصراط المستقيم ١٩

الصفحة

هبات ومنح للرسول ﷺ ٢١
نعم الله على المؤمنين ٢٣
حقيقة الإيمان وشروطه ٢٤
جزاء المنافقين والمشركين ٢٧

سمات الرسالة المحمدية ٣٠
بيعة الرضوان ٣٣
يد الله ٣٤
الوفاء بالبيعة ٣٥

المخلفون من الأعراب ٣٦
اعتذار المخلفين ٣٧
القرآن يكشف موقف المخلفين ٣٧
إرشادهم إلى التوبة ٣٩
المخلفون وغنائم خيبر ٤٠
حرمان المخلفين ٤١
دعوة المخلفين إلى الجهاد ٤٣

يوم حنين ٤٤
رضا الله عن المبايعين ٤٧
الغنائم ٤٩
حمية الجاهلية ٦١
كلمة التقوى وأهلها ٦٢
الرؤيا المحمدية وتحققها ٦٥

الصفحة

عمرة القضاء ٦٩
شهادة الله لرسوله بالرسالة ٧٢
صورة قرآنية لصحابة الرسول ٧٤
مثل الصحابة فى التوراة والإنجيل ٧٦

كلمات ومعان قرآنية:

الحق ٨١
الله ٨٤
الزوج ٨٥

من كتب الدكتور محمود بن الشريف

في الدراسات القرآنية:

١ - الأمثال في القرآن (طبعة رابعة)
الناشر: دار المعارف (سلسلة اقرأ)
الأمثال في القرآن (طبعة خامسة)
الناشر: دار عكاظ بالسعودية.
الأمثال في القرآن (طبعة سادسة)
الناشر: مكتبة الهلال بلبنان.

٢ - الدعاء في القرآن (طبعة ثانية)
الناشر: دار المعارف (سلسلة اقرأ)
الدعاء في القرآن (طبعة ثالثة)
الناشر: دار عكاظ بالسعودية.
الدعاء في القرآن (طبعة رابعة)
الناشر: مكتبة الهلال بلبنان.

٣ - الأديان في القرآن (طبعة رابعة)
الناشر: دار المعارف.
الأديان في القرآن (طبعة خامسة)
الناشر: دار عكاظ بالسعودية.

٤ - الصبر فى القرآن
الناشر: دار عكاظ بالسعودية.
٥ - من أعلام المفسرين: الطبرى.
الناشر: دار عكاظ بالسعودية.
٦ - إطلالة على سورة يس
الناشر: دار المعارف.
٧ - الحب فى القرآن
الناشر: دار المعارف (سلسلة اقرأ).
٨ - الرسول فى القرآن (طبعة ثانية)
الناشر: دار الكاتب العربى.
٩ - الفرقان فى القرآن
الناشر: دار الكاتب العربى.
١٠ - الحياة البرزخية فى القرآن
الناشر: دار الشعب
الحياة البرزخية فى القرآن (طبعة ثانية)
الناشر: مكتبة مدبولى.
١١ - القرآن ودنيا المرأة
الناشر: مكتبة الهلال بلبنان
١٢ - اليهود فى القرآن
الناشر: دار الكاتب العربى.
اليهود فى القرآن (طبعة ثانية)
الناشر:مكتبة الهلال بلبنان.

١٣ - الشعب الملعون فى القرآن
الناشر: دار الكتب الحديثة
الشعب الملعون فى القرآن (طبعة ثانية)
الناشر: مكتبة الهلال بلبنان.

١٤ - القصة فى القرآن
الناشر: مكتبة الهلال بلبنان.

١٥ - القرآن وحياتنا الثالثة
الناشر: دار المعارف سلسلة (كتابك).

فى الدراسات النبوية:

١ - من جوامع الكلم وينابيع الحكم.
الناشر: المؤلف.

٢ - المختصر الشريف فى علوم الحديث الشريف.
(تحت الطبع).

فى الدراسات الإسلامية:

١ - الإسلام والحياة الجنسية.
الناشر: مكتبة الأنجلو المصرية.
- الإسلام والحياة الجنسية (طبعة ثانية)
الناشر: مكتبة الهلال بلبنان.

٢ - الإسلام والأسرة
الناشر: مؤسسة المطبوعات الحديثة.

الإسلام والأسرة (طبعة ثانية)
الناشر: مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر.

٣ – بدر الغزوة الإسلامية الأولى
الناشر: مكتبة النهضة المصرية.

٤ – فدائيات إسلاميات
الناشر: مكتبة النهضة المصرية.

دراسات أدبية وتراجم:

١ – رواد خالدون
الناشر: دار سعد مصر.

٢ – خليل مطران أستاذ شوقى وحافظ
الناشر: دار سعد مصر.

٣ – الملخص الوافى فى الأدب والنقد
الناشر: الدار المصرية للطباعة والنشر.

٤ – رائد الفضاء
الناشر: المؤسسة العربية الحديثة.

٥ – خليل مطران شاعر الحرية
الناشر: دار الكاتب العربى.

٦ – أدب محمود تيمور للحقيقة والتاريخ
الناشر: مكتبة الكيلانى.

٧ – الفقاعى أصغر فدائى مصرى
الناشر: الدار القومية.

٨ - أسلحتنا العربية قديمًا وحديثًا
الناشر: الدار القومية.

كتب محققة:

١ - الرسالة القشيرية
(بالاشتراك مع الإمام الأكبر عبد الحليم محمود)
الناشر: دار الكتب الحديثة.

٢ - غيث المواهب العلية.
(بالاشتراك مع الامام الأكبر عبد الحليم محمود)
الناشر: دار الكتب الحديثة.

٣ - شرح حكم ابن عطاء الله
(بالاشتراك مع الإمام الأكبر عبد الحليم محمود)
الناشر: دار الكتب الحديثة.

٤ - عوارف المعارف
(بالاشتراك مع الإمام الأكبر عبد الحليم محمود)
الناشر: دار الكتب الحديثة.

٥ - قرة العين فى شرح الحكم
(للشيخ زروق)
الناشر: دار التراث العربى.

كتب مترجمة:

١ - عذراء باريس
الناشر: مكتبة الأنجلو المصرية.

رقم الإيداع		١٩٩١ / ٧١٦٥
الترقيم الدولى	977 – 02 – 3407 – 9	ISBN

١ / ٩١ / ٧٩

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)